

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

شرح وتعليق

العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

تحقيق

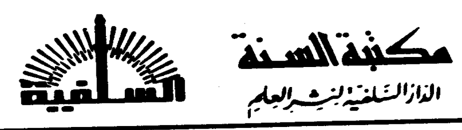
محمد بن عبد الله الطالبي

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

مكتبة السنة
بالقاهرة

رقم الإيداع : ١٦٦٩٠ / ٢٠٠٦
دار نوبار للطباعة



القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يُضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد : فإن الحكمة من إيجاد الجن والإنس هي عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ولذا كان التوحيد والعقيدة الصحيحة المأخوذة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ هي الغاية لتحقيق تلك العبادة ، فهي الأساس لعمارة الكون ، وبفقدها يكون فساده ، وخرابه ، كما قال الله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

ولما كان غير ممكن للعقول أن تستقل بمعرفة تفاصيل ذلك ، بعث الله سبحانه وتعالى برحمته ومَنِّه رسله ، وأنزل كتبه ؛ لإيضاح ذلك الأمر ، وبيانه وتفصيله للناس ، حتى يقوموا بعبادة الله تعالى على علم وبصيرة ، وأسس واضحة جلية ، ودعائم قويمة قوية ، فتتابع الرسل في تبليغه وتعليمه ، قال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون : ٤٤] ، أي يتْبع بعضهم بعضًا ، إلى أن ختمهم سبحانه بأفضل رسله ، وأعظم أنبيائه ، محمد ﷺ ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، ودعا إلى توحيد الله سرًّا وجهرًا ، ولم يزل ﷺ داعيًا إلى الله ، هاديًا إلى

صراطه المستقيم حتى أظهر اللّه به الدين ، وأتم به النعمة ، ودخل الناس في دين اللّه أفواجًا ، فلم يمت ﷺ حتى أكمل اللّه به الدين ، وأتم به النعمة ، قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

فبيّن صلوات اللّه وسلامه عليه الدين كله أصوله وفروعه ، فعن عبد الرحمن بن يزيد عن سلمان قال : قيل له : قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة[1] . وقد قيل : محال أن يظن بالنبي ﷺ أنه علم أمته الاستنجاء ولم يعلمهم التوحيد .

ولذا ينبغي أن يكون متقررًا لدى كل مسلم ، وواضحًا لدى كل مؤمن أن العقيدة لا مجال فيها للرأي والأخذ والعطاء ، وإنما يجب على كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها أن يعتقد عقيدة الأنبياء والمرسلين ، وأن يؤمن بالأصول التي آمنوا بها ودعوا إليها من غير شك ولا تردد : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآية [البقرة : ٢٨٥] .

فهذا شأن المؤمنين ، وهذا سبيلهم : الإيمان والتسليم والإذعان والقبول .

وفي هذا المؤلَّف الوجيز مع شرحه يجد المسلم أصول العقيدة الإسلامية ، وأهم أسسها وأبرز أصولها ومعالمها مما لا غنى للمسلم عنه ، ويجد ذلك مقرونًا بدليله ، مدعَّمًا بشواهده .

أسأل اللّه تعالى أن ينفع به وبشرحه وتحقيقه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وكتبه

محمد بن عبد اللّه الطالبي

عفا اللّه عنه وعن والديه

---

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » (٢٦٢/٥٧) كتاب الطهارة ، باب الاستطابة .

بِسْمِ (١) اللَّهِ (٢) الرَّحْمَٰنِ (٣) الرَّحِيمِ (٤)

---

(١) ابتدأ المؤلف رحمه الله كتابه بالبسملة اقتداءً بكتاب الله ﷻ فإنه مبدوء بالبسملة ، واتِّباعًا لحديث : « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر »[١] ، واقتداء بالرسول ﷺ ، فإنه يبدأ كتبه بالبسملة[٢] .

الجار والمجرور متعلق بمحذوف فعل مؤخر مناسب للمقام تقديره : بسم الله أكتب أو أصنف .

وقدرناه فعلًا ؛ لأن الأصل في العمل الأفعال .

وَقَدَّرْنَاهُ مؤخرًا لفائدتين :

الأولى : التَّبرُّكُ بالبداءة باسم الله سبحانه وتعالى .

الثانية : إفادة الحصر ؛ لأن تقديم المتعلق يفيد الحصر .

وقدرناه مناسبًا ؛ لأنه أدل على المراد ، فلو قلنا مثلًا عندما نريد أن نقرأ كتابًا : بسم الله نبتدئ . ما يُدْرَىَ بماذا نبتدئ ، لكن بسم الله أقرأ يكون أدل على المراد الذي أبتدئ به .

(٢) « الله » عَلَمٌ على الباري جل وعلا ، وهو الاسم الذي تتبعه جميع الأسماء حتى إنه في قوله تعالى : ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم : ١ - ٢] لا نقول : إن لفظ الجلالة « الله » صفة . بل نقول : هي عطف بيان ؛ لئلا يكون لفظ الجلالة تابعًا تبعية النعت للمنعوت .

(٣) « الرحمن » اسم من الأسماء المختصة بالله ﷻ لا يطلق على غيره ، والرحمن معناه المُتَّصِفُ بالرحمة الواسعة .

(٤) « الرحيم » يطلق على الله ﷻ وعلى غيره ، ومعناه ذو الرحمة الواصلة ، فالرحمن ذو الرحمة الواسعة ، والرحيم ذو الرحمة الواصلة ، فإذا جُمِعَا صار المراد بالرحيم : الموصل رحمته إلى من يشاء من عباده ، كما قال الله تعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت : ٢١] .

---

[١] **ضعيف جدًا** . أخرجه السبكي في « الطبقات » (٦/١) . وانظر « الإرواء » (١، ٢) .

[٢] انظر حديث هرقل : البخاري (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) .

اعْلَمْ(١) رَحِمكَ اللَّهُ(٢) أنَّه يَجِبُ عَلينا تَعَلُّمُ أرْبَعِ مَسَائِلَ(٣) :
الأُولى : العِلْمُ . وهو : معرفةُ اللَّهِ(٤) ...

---

(١) العلم : هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا . **ومراتب الإدراك ست :**
الأولى : العلم : وهو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكًا جازمًا .
الثانية : الجهل البسيط : وهو عدم الإدراك بالكلية .
الثالثة : الجهل المركب : وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه .
الرابعة : الوهم : وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد راجح .
الخامسة : الشك : وهو إدراك الشيء مع احتمال مساوٍ .
السادسة : الظن : وهو إدراك الشيء مع احتمال ضد مرجوح .
والعلم ينقسم إلى قسمين : ضروري ونظري .
فالضروري : ما يكون إدراك المعلوم فيه ضروريًّا بحيث يضطر إليه من غير نظر ولا استدلال ؛ كالعلم بأن النار حارة مثلًا .
والنظري : ما يحتاج إلى نظر واستدلال ؛ كالعلم بوجوب النية في الوضوء .

(٢) « رحمك الله » أفاض عليك من رحمته التي تحصل بها على مطلوبك وتنجو من محذورك ، فالمعنى : غفر الله لك ما مضى من ذنوبك ، ووفقك وعصمك فيما يستقبل منها . هذا إذا أفردت الرحمة ، أما إذا قرنت بالمغفرة ، فالمغفرة لما مضى من الذنوب ، والرحمة التوفيق للخير والسلامة من الذنوب في المستقبل .
وصنيع المؤلف رحمه الله تعالى يدل على عنايته وشفقته بالمخاطب وقصد الخير له .

(٣) « هذه المسائل » التي ذكرها المؤلف رحمه الله تعالى تشمل الدين كله فهي جديرة بالعناية لعظم نفعها .

(٤) أي « معرفة الله » ﷻ بالقلب معرفة تستلزم قبول ما شرعه والإذعان والانقياد له ، وتحكيم شريعته التي جاء بها رسوله محمد ﷺ ، ويتعرف العبد على ربه بالنظر في الآيات الشرعية في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ ، والنظر في الآيات الكونية التي هي المخلوقات ، فإن الإنسان كلما نظر في تلك الآيات ازداد علمًا بخالقه ومعبوده ، قال الله ﷻ : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠ - ٢١] .

ومعرفةُ نَبيِّه(١) ، ومعرفةُ دينِ الإسلامِ(٢) ...

(١) أي معرفة رسوله محمد ﷺ المعرفة التي تستلزم قبول ما جاء به من الهدى ودين الحق ، وتصديقه فيما أخبر ، وامتثال أمره فيما أمر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وتحكيم شريعته ، والرضا بحكمه ؛ قال الله ﷻ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] . وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] ، وقال تعالى ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] . وقال ﷻ : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور : ٦٣] . قال الإمام أحمد رحمه الله : « أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك » .

(٢) قوله : « معرفة دين الإسلام » : الإسلام بالمعنى العام هو : التعبد لله بما شرع منذ أن أرسل الله الرسل إلى أن تقوم الساعة ، كما ذكر ﷻ ذلك في آيات كثيرة تدل على أن الشرائع السابقة كلها إسلام لله ﷻ : قال الله تعالى عن إبراهيم : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

والإسلام بالمعنى الخاص بعد بعثة النبي ﷺ يختص بما بعث به محمد ﷺ ؛ لأن ما بعث به النبي ﷺ نسخ جميع الأديان السابقة ، فصار مَن اتبعه مسلمًا ، ومَن خالفه ليس بمسلم ، فأتباع الرسل مسلمون في زمن رسلهم ، فاليهود مسلمون في زمن موسى ﷺ ، والنصارى مسلمون في زمن عيسى ﷺ ، وأما حين بُعِثَ النبيُّ محمدٌ ﷺ فكفروا به فليسوا بمسلمين .

وهذا الدين الإسلامي هو الدين المقبول عند الله النافع لصاحبه ، قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران ، الآية : ٨٥] ، وهذا الإسلام هو الإسلام الذي امتن الله به على محمد ﷺ وأمته ، قال الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

بالأدلّةِ(١) .

الثّانيةُ : العملُ به(٢) .

الثّالثةُ : الدّعْوَةُ إليه(٣) .

(١) قوله : « بالأدلة » : جمع دليل وهو ما يرشد إلى المطلوب ، والأدلة على معرفة ذلك سمعية ، وعقلية ، فالسمعية ما ثبت بالوحي وهو الكتاب والسنة ، والعقلية ما ثبت بالنظر والتأمل ، وقد أكثر الله ﷻ من ذكر هذا النوع في كتابه ، فكم من آية قال الله فيها : ومن آياته كذا وكذا ، وهكذا يكون سياق الأدلة العقلية الدالة على الله تعالى .
وأما معرفة النبي ﷺ بالأدلة السمعية فمثل قوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح : ٢٩] الآية ، وقوله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . بالأدلة العقلية بالنظر والتأمل فيما أتى به من الآيات البينات التي أعظمها كتاب الله ﷻ المشتمل على الأخبار الصادقة النافعة والأحكام المصلحة العادلة ، وما جرى على يديه من خوارق العادات ، وما أخبر به من أمور الغيب التي لا تصدر إلا عن وحي والتي صدقها ما وقع منها .

(٢) قوله : « العمل به » : أي العمل بما تقتضيه هذه المعرفة من الإيمان بالله والقيام بطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه من العبادات الخاصة ، والعبادات المتعدية ، فالعبادات الخاصة مثل الصلاة ، والصوم ، والحج ، والعبادات المتعدية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله وما أشبه ذلك[١] .
والعمل في الحقيقة هو ثمرة العلم ، فمن عمل بلا علم فقد شابه النصارى ، ومن علم ولم يعمل فقد شابه اليهود .

(٣) أي الدعوة إلى ما جاء به الرسول ﷺ من شريعة الله تعالى على مراتبها الثلاث أو الأربع التي ذكرها الله ﷻ في قوله : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] [النحل: ١٢٥] والرابعة قوله : ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ

[١] العبادات الخاصة ، ويقال عنها أيضًا : العبادات القاصرة هي : العبادات التي ترجع منفعتها على العبد في خاصيته ونفسه ، والعبادات المتعدية هي التي يتعدى نفعها ويصل إلى العباد ، وقد مثل الشيخ رحمه الله لكل عبادة بما يوافقها .

[٢] انظر : « مدارج السالكين » (١/٤٤٥) ، و« الصواعق المرسلة » (٤/١٢٧٦) .

....

﴿ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ولا بد لهذه الدعوة من علم بشريعة الله ﷻ حتى تكون الدعوة عن علم وبصيرة ؛ لقوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، والبصيرة تكون فيما يدعو إليه بأن يكون الداعية عالمًا بالحكم الشرعي ، وفي كيفية الدعوة ، وفي حال المدعو[١] .

ومجالات الدعوة كثيرة منها[٢] : الدعوة إلى الله تعالى بالخطابة ، وإلقاء المحاضرات ، ومنها الدعوة إلى الله بالمقالات ، ومنها الدعوة إلى الله بحلقات العلم ، ومنها الدعوة إلى الله بالتأليف ونشر الدين عن طريق التأليف .

ومنها الدعوة إلى الله في المجالس الخاصة ، فإذا جلس الإنسان في مجلس في دعوة مثلًا فهذا مجال للدعوة إلى الله ﷻ ، ولكن ينبغي أن تكون على وجه لا ملل فيه ولا إثقال[٣]، ويحصل هذا بأن يعرض الداعية مسألة علمية على الجالسين ثم تبتدئ المناقشة ، ومعلوم أن المناقشة والسؤال والجواب له دور كبير في فهم ما أنزل الله على رسوله وتفهيمه ، وقد يكون أكثر فعالية من إلقاء خطبة أو محاضرة إلقاء مرسلًا كما هو معلوم .

والدعوة إلى الله ﷻ هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وطريقة من تبعهم

---

[١] قال الشيخ رحمه الله في « القول المفيد على كتاب التوحيد » (ص٨١) : قوله : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف : ١٠٨] أي : علم ، فتضمنت هذه الدعوة الإخلاص والعلم ؛ لأنَّ أكثر ما يفسد الدعوة عدم الإخلاص ، أو عدم العلم ، وليس المقصود بالعلم في قوله : ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط ، بل يشمل : العلم بالشرع ، والعلم بحال المدعو ، والعلم بالطريق الموصلة إلى المقصود ، وهو الحكمة . فيكون بصيرًا بحكم الشرع ، وبصيرًا بحال المدعو ، وبصيرًا بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ : « إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب ... » .

[٢] فمن ظن أن الدعوة إلى الله مقتصرة على طريقة واحدة فهو مخطئ ، بل للدعوة طرق كثيرة كما نبه الشيخ رحمه الله على ذلك ، ولها مجالات واسعة . كذلك من ظن أنها قائمة على أناس بعينهم لا يشركهم فيها غيرهم ، فظنه ظنٌّ خاطئٌ ، يظن أن الدعوة قاصرة على خريجي جامعات ... أو جماعات معينة ... وغيرهم لا يدعو ولا يتكلم في دين الله ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

[٣] وهذا شيء يجب أن يتنبه له الداعية ، أن لا يحدث مللًا ولا إثقالًا على المدعوين أثناء دعوته ، لذلك كان عبد الله بن مسعود يتخول أصحابه بالموعظة حتى لا يملوا ويقول : كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة . أخرجه البخاري وغيره .

الرَّابِعَةُ : الصبرُ على الأذَى فيه(١) .

بإحسان ، فإذا عرف الإنسان معبوده ، ونبيه ، ودينه ، ومَنَّ الله عليه بالتوفيق لذلك فإن عليه السعي في إنقاذ إخوانه بدعوتهم إلى الله عز وجل وليبشر بالخير ، قال النبي ﷺ لعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر : « انفذ على رِسْلِك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من حُمْرِ النعم »[١] متفق على صحته .

ويقول ﷺ فيما رواه مسلم : « من دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا »[٢]. وقال ﷺ فيما رواه مسلم أيضًا : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »[٣].

(١) « الصبر » حبس النفس على طاعة الله ، وحبسها عن معصية الله ، وحبسها عن التسخط من أقدار الله فيحبس النفس عن التسخط والتضجر والملل ، ويكون دائمًا نشيطًا في الدعوة إلى دين الله – وإن أُوذي ؛ لأن أذية الداعين إلى الخير من طبيعة البشر إلا من هدى الله ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام : ٣٤] ، وكلما قويت الأذية قرب النصر ، وليس النصر مختصًّا بأن ينصر الإنسان في حياته ويرى أثر دعوته قد تحقق ، بل النصر يكون ولو بعد موته ؛ بأن يجعل الله في قلوب الخلق قبولًا لما دعا إليه وأخذًا به وتمسكًا به ، فإن هذا يعتبر نصرًا لهذا الداعية – وإن كان ميتًا –، فعلى الداعية أن يكون صابرًا على دعوته مستمرًّا فيها ، صابرًا على ما يدعو إليه من دين الله عز وجل ، صابرًا على ما يعترض دعوته ، صابرًا على ما يعترضه هو من الأذى ، وها هم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أوذوا بالقول وبالفعل ، قال الله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٥٢] ، وقال عز وجل : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان : ٣١] ، ولكن على الداعية أن يقابل ذلك بالصبر ، وانظر إلى قول الله عز وجل

[١] **متفق عليه** : البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي .
[٢] مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة .
[٣] مسلم (١٨٩٣) من حديث أبي مسعود الأنصاري .

والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾(1) [العصر].

لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]، كان من المنتظر أن يقال: فاشكر نعمة ربك ولكنه ﷻ قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، وفي هذا إشارة إلى أن كل من قام بهذا القرآن فلابد أن يناله ما يناله مما يحتاج إلى صبر، وانظر إلى حال النبي ﷺ حين ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[١]. فعلى الداعية أن يكون صابرًا محتسبًا.

والصبر ثلاثة أقسام:

١- صبر على طاعة الله. **٢-** صبر عن محارم الله.

٣- صبر على أقدار الله التي يجريها، إما مما لا كسب للعباد فيه، وإما مما يجريه الله على أيدي بعض العباد من الإيذاء والاعتداء.

(١) قوله: «والدليل»: أي على هذه المراتب الأربع قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أقسم الله ﷻ في هذه السورة بالعصر الذي هو الدهر، وهو محل الحوادث من خير وشر، فأقسم الله ﷻ به على أن الإنسان كل الإنسان في خسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: **جهاد النفس أربع مراتب:**

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين[٢].

فالله ﷻ أقسم في هذه السورة بالعصر على أن كل إنسان فهو في خيبة وخسر مهما كثر ماله وولده وعظم قدره وشرفه إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة:

---

[١] **متفق عليه**: البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود.

[٢] انظر «زاد المعاد» (٩/٣).

قال الشَّافِعِيُّ(١) رحِمه اللَّهُ تعالَى : « لو ما أنزلَ اللَّهُ حُجَّةً على خَلْقِهِ إلَّا هذه السُّورَة لكَفَتْهُمْ »(٢) .

وقال البخاريُّ(٣)[١] رحِمه اللَّهُ : « بابٌ العلمُ قبلَ القولِ والعملِ » . والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد : ١٩] ،

أحدها : الإيمان ؛ ويشمل كل ما يقرب إلى الله تعالى من اعتقاد صحيح وعلم نافع .

الثاني : العمل الصالح وهو كل قول أو فعل يقرب إلى الله بأن يكون فاعله لله مخلصًا ولمحمد ﷺ متبعًا[٢] .

الثالث : التواصي بالحق وهو التواصي على فعل الخير والحث عليه والترغيب فيه .

الرابع : التواصي بالصبر بأن يوصي بعضهم بعضًا بالصبر على فعل أوامر الله تعالى ، وترك محارم الله ، وتحمل أقدار الله .

والتواصي بالحق والتواصي بالصبر يتضمنان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين بهما قوام الأمة وصلاحها ونصرها وحصول الشرف والفضيلة لها : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

(١) « الشافعي » هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي ، ولد في غزة سنة ١٥٠هـ ، وتوفي بمصر سنة ٢٠٤هـ ، وهو أحد الأئمة الأربعة ، على الجميع رحمة الله تعالى .

(٢) مراده رحمه الله أن هذه السورة كافية للخلق في الحث على التمسك بدين الله بالإيمان ، والعمل الصالح ، والدعوة إلى الله ، والصبر على ذلك ، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة .

وقوله : « لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم »[٣] لأن العاقل البصير إذا سمع هذه السورة أو قرأها فلا بد أن يسعى إلى تخليص نفسه من الخسران وذلك باتصافه بهذه الصفات الأربع : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

(٣) « البخاري » هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، ولد

---

[١] في « صحيحه » كتاب العلم : « باب العلم قبل قبول القول والعمل » (١/١٦٠) .

[٢] وهذه هي شروط قبول العمل عند الله عز وجل ، بأن يكون عامله مخلصًا لله عز وجل فيه ، متابعًا لنبيه ﷺ فيه .

[٣] انظر « تفسير ابن كثير » (١/٩١) ، و« رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه » (ص٢١) .

فَبَدأَ بالعِلمِ قبلَ القولِ والعملِ[1] .

* * *

اعْلَمْ رحِمكَ اللَّهُ : أنه يجبُ على كُلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ تَعَلُّمُ ثَلاثِ هذه المسائلِ والعملُ بهنَّ :

الأُولَى : أنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا[2] ...

ببخارى في شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، ونشأ يتيمًا في حجر والدته، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ في « خَرْتنك » بلدة على فرسخين من سمرقند ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين .

(١) استدل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية على وجوب البداءة بالعلم قبل القول والعمل ، وهذا دليل أثري يدل على أن الإنسان يعلم أولًا ثم يعمل ثانيًا ، وهناك دليل عقلي نظري يدل على أن العلم قبل القول والعمل ؛ وذلك لأن القول أو العمل لا يكون صحيحًا مقبولًا حتى يكون على وفق الشريعة ، ولا يمكن أن يعلم الإنسان أن عمله على وفق الشريعة إلا بالعلم ، ولكن هناك أشياء يعلمها الإنسان بفطرته كالعلم بأن الله إله واحد ، فإن هذا قد فطر عليه العبد ، ولهذا لا يحتاج إلى عناء كبير في التعلم ، أما المسائل الجزئية المنتشرة فهي التي تحتاج إلى تعلم وتكريس جهود .

(٢) ودليل ذلك – أعني أن الله خلقنا – سمعي وعقلي :

أما السمعي فكثير ومنه قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ٢] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف : ١١] الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر : ٢٦] ، وقوله : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم : ٢٠] وقوله : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن : ١٤] ، وقوله : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] ، وقوله : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات .

أما الدليل العقلي على أن الله خلقنا فقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] ، فإن الإنسان لم يخلق نفسه ؛ لأنه

ورزقنا[١] ...

قبل وجوده عدم ، والعدم ليس بشيء ، وما ليس بشيء لا يوجد شيئًا ، ولم يخلقه أبوه ولا أمه ولا أحد من الخلق ، ولم يكن ليأتي صدفة بدون موجد ؛ لأن كل حادث لا بد له من محدث ؛ ولأن وجود هذه المخلوقات على هذا النظام والتناسق المتآلف يمنع منعًا باتًّا أن يكون صدفة ؛ إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره ؛ فتعين بهذا أن يكون الخالق هو الله وحده فلا خالق ولا آمر إلا الله ، قال الله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] . ولم يُعْلَمْ أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه وتعالى إلا على وجه المكابرة كما حصل من فرعون ، وعندما سمع جبير بن مطعم رسول الله ﷺ يقرأ سورة « الطور » فبلغ قوله تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ﴾ [الطور : ٣٥ - ٣٧] ، وكان جبير بن مطعم يومئذ مشركًا فقال : « كاد قلبي أن يطير وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي »[١].

(١) أدلة هذه المسألة كثيرة من الكتاب والسنة والعقل .

أما الكتاب : فقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨]، وقال تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سبأ : ٢٤] ، وقوله : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس : ٣١] ، والآيات في هذا كثيرة .

وأما السنة : فمنها قوله ﷺ في الجنين يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله ، وعمله وشقي أم سعيد[٢].

وأما الدليل العقلي على أن الله رزقنا فلأننا لا نعيش إلا على طعام وشراب ، والطعام والشراب خلقه الله ﷻ كما قال الله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ

---

[١] أخرجه البخاري (٤٨٥٤) شطره الأول ، و(٢٠٢٣) شطره الثاني .

[٢] **متفق عليه :** أخرجه البخاري (٦٥٩٤) ، ومسلم (٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود .

وَلَم يَترُكنا هَمَلاً[(١)] ، بل أرسلَ إلينا رسُولاً[(٢)] ...

ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة : ٦٣- ٧٠] ، ففي هذه الآيات بيان أن رزقنا - طعامًا وشرابًا - من عند الله ﷻ .

(١) هذا هو الواقع الذي تدل عليه الأدلة السمعية والعقلية :
أما السمعية : فمنها قوله تعالى : ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المؤمنون : ١١٥-١١٦] ، وقوله : ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠] .
وأما العقل : فلأن وجود هذه البشرية لتحيا ثم تتمتع كما تتمتع الأنعام ثم تموت إلى غير بعث ولا حساب أمر لا يليق بحكمة الله ﷻ ، بل هو عبث محض ، ولا يمكن أن يخلق الله هذه الخليقة ، ويرسل إليها الرسل ، ويبيح لنا دماء المعارضين المخالفين للرسل عليهم الصلاة والسلام ، ثم تكون النتيجة لا شيء ، هذا مستحيل على حكمة الله ﷻ .

(٢) أي أن الله ﷻ أرسل إلينا معشر هذه الأمة - أمة محمد ﷺ - رسولاً يتلو علينا آيات ربنا ، ويزكينا ، ويعلمنا الكتاب والحكمة ، كما أرسل إلى من قبلنا ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر : ٢٤] ، ولا بد أن يرسل الله الرسل إلى الخلق ؛ لتقوم عليهم الحجة وليعبدوا الله بما يحبه ويرضاه قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء : ١٦٣ - ١٦٥] ، ولا يمكن أن نعبد الله - بما يرضاه - إلا عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنهم هم الذين بينوا لنا ما يحبه الله ويرضاه ، وما يقربنا إليه ﷻ ، فبذلك كان من حكمة الله أن أرسل إلى الخلق رسلاً مبشرين ومنذرين .
الدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل : ١٥، ١٦] .

فمَن أطاعهُ دخلَ الجنّةَ[1]، ومَن عصَاهُ دخلَ النَّارَ[2]، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الثانية[3]: أنَّ اللَّهَ لا يرضَى أن يُشركَ معهُ أحدٌ في عبادتِهِ لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسلٌ. والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

---

(١) هذا حق مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٢-١٣٣]، ومن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، ومن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] والآيات في ذلك كثيرة.

ومن قوله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» فقيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار» رواه البخاري[1].

(٢) هذا أيضًا حق مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، ومن قوله ﷺ في الحديث السابق: «ومن عصاني دخل النار».

(٣) أي المسألة الثانية مما يجب علينا علمه أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحدٌ، بل هو وحده المستحق للعبادة.

---

[١] أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة بلفظ: «... ومن عصاني فقد أبى».

الثالثةُ(١) : أنَّ مَن أطَاعَ الرسولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ له مُوالاةُ مَن حَادَّ اللَّهَ ورسولَهُ ولو كانَ أقرَبَ قريبٍ ، والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟

ودليل ذلك ما ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨] ، فنهى الله تعالى أن يدعو الإنسان مع الله أحدًا ، والله لا ينهى عن شيء إلا وهو لا يرضاه سبحانه وتعالى ، وقال الله ﷻ : ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٩٦] ، فالكفر والشرك لا يرضاه الله سبحانه وتعالى ، بل إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ؛ لمحاربة الكفر والشرك والقضاء عليهما ، قال الله تعالى : ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾ [الأنفال : ٣٩].

وإذا كان الله لا يرضى بالكفر والشرك فإن الواجب على المؤمن أن لا يرضى بهما ؛ لأن المؤمن رضاه وغضبه تبع رضا الله وغضبه ، فيغضب لما يغضب الله ويرضى بما يرضاه الله ﷻ ، وكذلك إذا كان الله لا يرضى الكفر ولا الشرك فإنه لا يليق بمؤمن أن يرضى بهما .

والشرك أمره خطير قال الله ﷻ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقال النبي ﷺ: «من لقي اللّه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»[١].

(١) أي المسألة الثالثة مما يجب علينا علمه الولاء والبراء ، والولاء والبراء أصل عظيم جاءت فيه النصوص الكثيرة قال الله ﷻ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران : ١١٨] . وقال تعالى : ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

[١] أخرجه مسلم (٩٣) من حديث جابر ، وأخرجه البخاري (١٢٩، ١٣٨) شطره الأول من حديث أنس بلفظ : «ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل ...» .

ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

* * *

ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٢٣- ٢٤] ، وقال ﷻ : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤] الآية .

ولأن موالاة من حاد الله ومداراته تدل على أن ما في قلب الإنسان من الإيمان بالله ورسوله ضعيف ؛ لأنه ليس من العقل أن يحب الإنسان شيئًا هو عدو لمحبوبه ، وموالاة الكفار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضلال ، وموادتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودتهم ، فتجده يوادهم أي يطلب ودَّهم بكل طريق ، وهذا لا شك ينافي الإيمان كله أو كماله ، فالواجب على المؤمن معاداة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب إليه ، وبغضه والبعد عنه ، ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحق .

* * *

اعْلَمْ(١) أَرْشَدَكَ اللَّهُ(٢) لِطَاعَتِهِ(٣) : أَنَّ الحَنِيفيَّةَ(٤) مِلَّةَ(٥) إبراهيمَ(٦) : أن تعبُدَ اللَّهَ وحدَهُ(٧) مُخْلِصًا له الدِّينَ(٨). وبذلك(٩) أَمَرَ اللَّهُ جميعَ النَّاسِ ،

(١) تقدم الكلام على العلم فلا حاجة إلى إعادته هنا .

(٢) « الرشد » : الاستقامة على طريق الحق .

(٣) « الطاعة » : موافقة المراد فعلًا للمأمور وتركًا للمحظور .

(٤) « الحنيفية » : هي الملة المائلة عن الشرك ، المبنية على الإخلاص لله ﷻ .

(٥) أي طريقه الديني الذي يسير عليه عليه الصلاة والسلام .

(٦) « إبراهيم » : هو خليل الرحمن قال ﷻ : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] ، وهو أبو الأنبياء ، وقد تكرر ذكر منهجه في مواضع كثيرة للاقتداء به .

(٧) قوله : « أن تعبد الله » : هذه خبر « أن » في قول : « أن الحنيفية » ، والعبادة بمفهومها العام هي « التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه الذي جاءت به شرائعه »[١] .

أما المفهوم الخاص للعبادة – يعني تفصيلها – فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الظاهرة والباطنة كالخوف ، والخشية ، والتوكل والصلاة والزكاة ، والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام » .

(٨) الإخلاص هو التنقية ، والمراد به أن يقصد المرء بعبادته وجه الله ﷻ والوصول إلى دار كرامته ، بحيث لا يعبد معه غيره ، لا ملكًا مقربًا ، ولا نبيًّا مرسلًا ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] . وقال اللَّه تعالى : ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠- ١٣٢] .

(٩) أي بالحنيفية وهي عبادة الله مخلصًا له الدين أمر الله جميع الناس وخلقهم لها ، كما

[١] قال ابن كثير في « تفسيره » (٤/٢٣٨) : « وعبادته هي طاعته بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وذلك هو حقيقة دين الإسلام ؛ لأن معنى الإسلام : الاستسلام لله تعالى ، المتضمن غاية الانقياد والذل والخضوع » .

[٢] انظر « مجموع الفتاوى » (١٠/١٤٩) رسالة العبودية .

وخلقهم لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى يعبدون: يوحدون[١].

وأعظم ما أمر الله به التوحيد، وهو: إفراد الله بالعبادة[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وبيَّن الله ﷻ في كتابه أن الخلق إنما خلقوا لهذا فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) يعني التوحيد من معنى العبادة، وإلا فقد سبق لك معنى العبادة وعلى أي شيء تطلق، وأنها أعم من مجرد التوحيد.

واعلم أن العبادة نوعان:

عبادة كونية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد لقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهي شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

والثاني: عبادة شرعية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى واتبع ما جاءت به الرسل، مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالنوع الأول لا يحمد عليه الإنسان؛ لأنه بغير فعله، لكن قد يحمد على ما يحصل منه من شكر عند الرخاء، وصبرٍ على البلاء بخلاف النوع الثاني فإنه يحمد عليه[١].

(٢) «التوحيد» لغة مصدر وحَّد يوحِّد، أي جعل الشيء واحدًا، وهذا لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، نفي الحكم عما سوى الموحَّد، وإثباته له فمثلًا نقول: إنه لا يتم للإنسان التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فينفي الألوهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده.

وفي الاصطلاح عرفه المؤلف بقوله: «التوحيد هو إفراد الله بالعبادة» أي أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئًا، لا تشرك به نبيًّا مرسلًا، ولا ملَكًا مقربًا، ولا رئيسًا ولا ملِكًا ولا أحدًا من الخلق، بل تفرده وحده بالعبادة محبة وتعظيمًا، ورغبة ورهبة، ومراد

---

[١] وقسم الشارح رحمه الله العبادة أيضًا إلى ثلاثة أقسام، عبودية عامة وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، وهي المعبر عنها في هذا الشرح، بالعبادة الكونية، وعبودية خاصة وهي عبودية الطاعة العامة لغير الرسل، وعبودية خاصة الخاصة، وهي عبودية الرسل التي لا يباريهم فيها أحد. انظر: «القول المفيد» (ص٢٢-٢٣).

....

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ التوحيد الذي بعثت الرسل لتحقيقه ؛ لأنه هو الذي حصل به الإخلال من أقوامهم .

وهناك تعريف أعم للتوحيد وهو : « إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به »[١] .

وأنواع التوحيد ثلاثة :

الأول : توحيد الربوبية : وهو « إفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق ، والملك والتدبير » .

قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقال تعالى : ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر : ٣] ، وقال تعالى : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك : ١] ، وقال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

الثاني : توحيد الألوهية[٢]: وهو « إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة » بأن لا يتخذ الإنسان مع الله أحدًا يعبده ويتقرب إليه كما يعبد الله تعالى ويتقرب إليه .

الثالث : توحيد الأسماء والصفات : وهو « إفراد الله تعالى بما سمى به نفسه ووصف به نفسه في كتابه ، أو على لسان رسوله ﷺ ، وذلك بإثبات ما أثبته ، ونفي ما نفاه ، من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ومن غير تكييف[٣] ، ولا تمثيل » .

ومراد المؤلف هنا توحيد الألوهية ، وهو الذي ضل فيه المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وأرضهم وديارهم ، وسبى نساءهم وذريتهم ، وأكثر ما يعالج الرسل أقوامهم على هذا النوع من التوحيد .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل : ٢٩] .

---

[١] لأن تعريف صاحب المتن اقتصر على نوع واحد من أنواع التوحيد ، وهو توحيد الألوهية ، أما ما ذكره الشارح رحمه الله شمل أنواع التوحيد كلها من توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات .

[٢] ويسمى أيضًا : « توحيد العبادة ؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى : توحيد الألوهية ، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة » . « القول المفيد » (ص١١) .

[٣] ويقصد الشارح رحمه الله بقوله : « ومن غير تكييف » نفي التكييف لا أصل الكيفية ، فإن أصل الكيفية مثبتة في حق الله تعالى ، لكنا لا نعلمها ، ومن لم يعلم شيئًا لا يستطيع أن يكيفه ؛ ولذلك قال الإمام مالك عندما سأله رجل عن الاستواء قال : « ... الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول » . وانظر « القواعد المثلى » القاعدة السادسة من قواعد الصفات وشرحها للشارح رحمه الله .

وأعظمُ ما نَهى عنه الشِّرْكُ ، وهو : دعوةُ غيرِه معه ، والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾(١) [النساء : ٣٦] .

فالعبادة لا تصح إلا لله ﷻ ، ومن أخلَّ بهذا التوحيد فهو مشرك كافر - وإن أقر بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات - فلو فرض أن رجلًا يقر إقرارًا كاملًا بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات ، ولكنه يذهب إلى القبر فيعبد صاحبه أو ينذر له قربانًا يتقرب به إليه فإنه مشرك كافر خالد في النار قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢].

وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله ؛ لأنه الأصل الذي ينبني عليه الدين كله ، ولهذا بدأ به النبي ﷺ في الدعوة إلى الله ، وأمر من أرسله للدعوة أن يبدأ به[١].

(١) أعظم ما نهى الله عنه الشرك ؛ وذلك لأن أعظم الحقوق هو حق الله ﷻ فإذا فرط فيه الإنسان فقد فرط في أعظم الحقوق وهو توحيد الله ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال ﷻ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء : ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة : ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقال النبي ﷺ : « أعظم الذنب أن تجعل لله ندًا وهو خلقك »[٢]، وقال عليه الصلاة والسلام - فيما رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه - : « من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار »[٣] ، وقال النبي ﷺ : « من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار » رواه البخاري[٤].

واستدل المؤلف رحمه الله تعالى لأمر الله تعالى بالعبادة ونهيه عن الشرك بقوله ﷻ : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء : ٣٦] ، فأمر الله سبحانه وتعالى

---

[١] ومن ذلك حديث ابن عباس في بعث معاذ إلى اليمن ، قال له ﷺ : « ... فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ...» متفق عليه : البخاري (٤٣٤٧) ، ومسلم (١٩) .

[٢] **متفق عليه** : البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ : سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » .

[٣] تقدم تخريجه .

[٤] **متفق عليه** : البخاري (٤٤٩٧) واللفظ له ، ومسلم (٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود .

فإذا قِيلَ لكَ : ما الأُصولُ[١] الثَّلاثَةُ التي يَجِبُ على الإنسانِ مَعْرِفَتُها[٢]؟ فَقُلْ : مَعْرِفةُ العَبْدِ ربَّهُ[٣] ...

بعبادته ونهى عن الشرك به ، وهذا يتضمن إثبات العبادة له وحده ، فمن لم يعبد الله فهو كافر مستكبر ، ومن عَبَدَ اللَّهَ وعبد معه غيرَه فهو كافر مشرك ، ومن عَبَدَ اللَّهَ وحده فهو مسلم مخلص .

والشرك نوعان : شرك أكبر ، وشرك أصغر .

فالنوع الأول : الشرك الأكبر : وهو كل شرك أطلقه الشارع وكان متضمنًا لخروج الإنسان عن دينه .

النوع الثاني : الشرك الأصغر : وهو كل عمل قولي أو فعلي أطلق عليه الشرع وصف الشرك ولكنه لا يخرج عن الملة .

وعلى الإنسان الحذر من الشرك أكبره وأصغره فقد قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء الآية : ٤٨] .

(١) الأصول جمع أصل ، وهو ما يبنى عليه غيره ، ومن ذلك أصل الجدار وهو أساسه ، وأصل الشجرة الذي يتفرع منه الأغصان ، قال الله تعالى : ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤] .

وهذه الأصول الثلاثة يشير بها المصنف رحمه إلى الأصول التي يسأل عنها الإنسان في قبره : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك[١] ؟

(٢) أورد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه المسألة بصيغة السؤال ؛ وذلك من أجل أن ينتبه الإنسان لها ؛ لأنها مسألة عظيمة وأصول كبيرة ؛ وإنما قال : إن هذه هي الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها ؛ لأنها هي الأصول التي يسأل عنها المرء في قبره ، إذا دفن وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان فأقعداه فسألاه من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فأما المؤمن فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد . وأما المرتاب أو المنافق فيقول : هاه هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[١] .

(٣) معرفة الله تكون بأسباب :

[١] كما في حديث البراء بن عازب الطويل في الموت عند أبي داود (٤٧٥٤) ، وأحمد (٤/٢٨٧) ، وصححه جمع من العلماء ، وانظره في « الداء والدواء » (٤٤) بتحقيقي طبعة دار طيبة .

ودِينَهُ(١) ...

منها : النظر والتفكر في مخلوقاته ﷻ ، فإن ذلك يؤدي إلى معرفته ومعرفة عظيم سلطانه وتمام قدرته وحكمته ورحمته ، قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٨٥] ، وقال عز وجل : ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وقال ﷻ : ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

ومن أسباب معرفة العبد ربه : النظر في آياته الشرعية ، وهي الوحي الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام فينظر في هذه الآيات وما فيها من المصالح العظيمة التي لا تقوم حياة الخلق في الدنيا ولا في الآخرة إلا بها ، فإذا نظر فيها وتأملها وما اشتملت عليه من العلم والحكمة ووجد انتظامها وموافقتها لمصالح العباد عرف بذلك ربه ﷻ ، كما قال الله ﷻ : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

ومنها : ما يُلقي الله ﷻ في قلب المؤمن من معرفة الله سبحانه وتعالى حتى كأنه يرى ربه رأي العين قال النبي عليه الصلاة والسلام – حين سأله جبريل : ما الإحسان ؟ قال –: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١].

(١) أي معرفة الأصل الثاني وهو دينه الذي كُلِّفَ العمل به وما تضمنه من الحكمة والرحمة ومصالح الخلق ، ودرء المفاسد عنها ، ودين الإسلام من تأمله حق التأمل – تأملًا مبنيًا على الكتاب والسنة – عرف أنه دين الحق ، وأنه الدين الذي لا تقوم مصالح الخلق إلا به ، ولا ينبغي أن نقيس الإسلام بما عليه المسلمون اليوم ، فإن المسلمين قد فرطوا في

---

[١] مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب ، وهو في الصحيحين وغيرهما عن غير واحد من الصحابة .

ونَبِيَّهُ محمدًا ﷺ(١) .

الأَصْلُ الأَوَّلُ : مَعْرِفَةُ الرَّبِّ :

فإذا قِيلَ لكَ : مَن رَبُّكَ(٢) ؟

فَقُلْ : رَبِّيَ اللَّهُ الذي رَبَّاني ورَبَّى جميعَ العالَمِينَ بِنِعَمِهِ(٣) ، وهو معبودِي

أشياء كثيرة ، وارتكبوا محاذير عظيمة ، حتى كأن العائش بينهم في بعض البلاد الإسلامية يعيش في جو غير إسلامي .

والدين الإسلامي - بحمد الله تعالى - متضمن لجميع المصالح التي تضمنتها الأديان السابقة ، متميز عليها بكونه صالحًا لكل زمان ومكان وأمة ، ومعنى كونه صالحًا لكل زمان ومكان وأمة : أن التمسك به لا ينافي مصالح الأمة في أي زمان ومكان وأمة ، فدين الإسلام يأمر بكل عمل صالح ، وينهى عن كل عمل سيئ ، فهو يأمر بكل خلق فاضل ، وينهى عن كل خلق سافل .

(١) هذا هو الأصل الثالث ، وهو معرفة الإنسان نبيه محمدًا ﷺ ، وتحصل بدراسة حياة النبي ﷺ وما كان عليه من العبادة ، والأخلاق ، والدعوة إلى الله ﷻ ، والجهاد في سبيله ، وغير ذلك من جوانب حياته عليه الصلاة والسلام ، ولهذا ينبغي لكل إنسان يريد أن يزداد معرفة بنبيه وإيمانًا به أن يطالع من سيرته ما تيسر ، في حربه وسلمه ، وشدته ورخائه ، وجميع أحواله ، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المتبعين لرسوله ﷺ ، باطنًا وظاهرًا ، وأن يتوفانا على ذلك إنه وليه والقادر عليه .

(٢) أي من هو ربك الذي خلقك ، وأمدك ، وأعدك ، ورزقك .

(٣) التربية هي عبارة عن الرعاية التي يكون بها تقويم المربى ، ويشعر كلام المؤلف رحمه الله أن الرب مأخوذ من التربية ؛ لأنه قال : « الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه » فكل العالمين قد رباهم الله بنعمه وأعدهم لما خلقوا له ، وأمدهم برزقه قال الله تبارك وتعالى - في محاورة موسى وفرعون -: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩- ٥٠] فكل أحد من العالمين قد رباه الله ﷻ بنعمه .

ونعم الله ﷻ على عباده كثيرة لا يمكن حصرها ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨] ، فالله هو الذي خلقك وأعدك وأمدك ورزقك ، فهو وحده المستحق للعبادة .

ليسَ لي مَعبُودٌ سِوَاهُ(١) ، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢) [الفاتحة : ٢] . وكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ وأنَا وَاحِدٌ مِن ذلكَ العَالَمِ(٣) .

فإذَا قِيل لكَ : بِمَ عَرَفتَ ربَّكَ(٤) ؟

فَقُلْ : بآياتِهِ ومَخلُوقَاتِهِ(٥) ، ومِن آياتِهِ : الليلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمرُ ، ومِن

---

(١) أي وهو الذي أعبده وأتذلل له خضوعًا ومحبة وتعظيمًا ، أفعل ما يأمرني به ، وأترك ما ينهاني عنه ، فليس لي أحد أعبده سوى الله ﷻ ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] .

(٢) استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكون الله سبحانه وتعالى مربيًا لجميع الخلق بقوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ، يعني الوصف بالكمال والجلال والعظمة لله تعالى وحده .

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي مربيهم بالنعم وخالقهم ومالكهم ، والمدبر لهم كما شاء ﷻ .

(٣) « العالم » : كلُّ مَن سوى الله ، وسموا عالمًا ؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم ومالكهم ومدبرهم ففي كل شيء آيةٌ لله تدلُّ على أنه واحدٌ .

وأنا ، المجيب بهذا ، واحد من ذلك العالم ، وإذا كان ربي وجب علي أن أعبده وحده .

(٤) أي إذا قيل لك : بأي شيء عرفت الله ﷻ ؟ فقل : عرفته بآياته ومخلوقاته .

(٥) الآيات : جمع آية ، وهي العلامة على الشيء التي تدل عليه وتبينه .

وآيات الله تعالى نوعان : كونية وشرعية ، فالكونية هي المخلوقات ، والشرعية هي الوحي الذي أنزله الله على رسله ، وعلى هذا يكون قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « بآياته ومخلوقاته » من باب عطف الخاص على العام إذا فسرنا الآيات بأنها الآيات الكونية والشرعية .

أو من باب عطف المباين المغاير إذا خصصنا الآيات بالآيات الشرعية . وعلى كل فالله ﷻ يعرف بآياته الكونية وهي المخلوقات العظيمة وما فيها من عجائب الصنعة وبالغ الحكمة ، وكذلك يعرف بآياته الشرعية وما فيها من العدل ، والاشتمال على المصالح ، ودفع المفاسد [المتقارب] :

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تـدلُّ على أنَّـهُ واحـدُ[١]

---

[١] هذا البيت في ديوان أبي العتاهية (ص١٢٢) ، ونسبه له أبو الفرج في « الأغاني » (٤/٣٥) ، وانظر =

مَخْلُوقاتِهِ : السماواتُ السَّبعُ والأرَضُونَ السَّبْعُ ومَن فِيهِنَّ ومَا بينَهمَا(١).

والدَّليلُ(٢) قولُه تعالَى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت : ٣٧] .

---

(١) كل هذه من آيات الله الدالة على كمال القدرة ، وكمال الحكمة ، وكمال الرحمة ، فالشمس آية من آيات الله ﷻ لكونها تسير سيرًا منتظمًا بديعًا منذ خلقها الله ﷻ وإلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم ، فهي تسير لمستقر لها كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، وهي من آيات الله تعالى بحجمها وآثارها ، أما حجمها فعظيم كبير[١] ، وأما آثارها فما يحصل منها من المنافع للأجسام والأشجار والأنهار ، والبحار وغير ذلك ، فإذا نظرنا إلى الشمس هذه الآية العظيمة ما مدى البعد الذي بيننا وبينها ، ومع ذلك فإننا نجد حرارتها هذه الحرارة العظيمة ، ثم انظر ماذا يحدث فيها من الإضاءة العظيمة التي يحصل بها توفير أموال كثيرة على الناس ، فإن الناس في النهار يستغنون عن كل إضاءة ، ويحصل بها مصلحة كبيرة للناس من توفير أموالهم ، ويعد هذا من الآيات التي لا ندرك إلا اليسير منها . وكذلك القمر[٢] من آيات الله ﷻ حيث قدَّره منازل ، لكل ليلة منزلة ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] ، فهو يبدو صغيرًا ثم يكبر رويدًا رويدًا حتى يكمل ثم يعود إلى النقص ، وهو يشبه الإنسان حيث إنه يخلق من ضعف ثم لا يزال يترقى من قوة إلى قوة حتى يعود إلى الضعف مرة أخرى فتبارك الله أحسن الخالقين .

(٢) أي والدليل على أن الليل والنهار ، والشمس والقمر من آيات الله ﷻ قوله تعالى :

= « وفيات الأعيان » (١٣٨/٧) .

[١] حجم الشمس يساوي مليون وثلاثمائة ألف مرة حجم الأرض ، وتبعد الشمس عن الأرض في المتوسط حوالي ١٥٠ مليون كم من الأرض ، ودرجة حرارة سطح الشمس ستة آلاف درجة مئوية ، وباطنها أكثر من ذلك بكثير .

[٢] حجم القمر بالنسبة إلى حجم الأرض يوازي واحد على خمسين من حجم الأرض تقريبًا ، ويتحرك القمر حول الأرض على مسافة يبلغ متوسط بعدها عن الأرض بـ (٣٨٤, ٤٠٣) كم ، وبسرعة يبلغ متوسطها (٣٧٠٠) كم في الساعة ، ويتم القمر دورة كاملة حول الأرض في مدار بيضاوي في فترة تبلغ ٢٧ يومًا ، و٧ ساعات ، و٤٣ دقيقة ، و٥, ١١ ثانية قياسًا بالنجوم ، وتستغرق دورة انتقال القمر من طور إلى طور آخر مشابه ، أو بمعنى آخر مرور شهر قمري مدة ٢٩ يومًا ، و١٢ ساعة ، و٤٤ دقيقة ، و٨, ٢ ثانية .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١) [الأعراف : ٥٤] .

والرَّبُّ هو المَعبُودُ(٢) ...

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ ... إلخ . أي من العلامات البينة المبينة لمدلولها الليل والنهار في ذاتهما واختلافهما ، وما أودع الله فيهما من مصالح العباد وتقلبات أحوالهم ، وكذلك الشمس والقمر في ذاتهما وسيرهما وانتظامهما وما يحصل بذلك من مصالح العباد ودفع مضارهم . ثم نهى الله تعالى العباد أن يسجدوا للشمس أو القمر – وإن بلغا مبلغًا عظيمًا في نفوسهم – ؛ لأنهما لا يستحقان العبادة لكونهما مخلوقين ، وإنما المستحق للعبادة هو الله تعالى الذي خلقهن .

(١) وقوله ، أي من الأدلة على أن الله خلق السماوات والأرض : قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية .

وفيها من آيات الله :

أولًا : أن الله خلق هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام ولو شاء لخلقها بلحظة ، ولكنه ربط المسببات بأسبابها كما تقتضيه حكمته .

ثانيًا : أنه استوى على العرش أي علا عليه علوًّا خاصًّا به ، كما يليق بجلاله وعظمته وهذا عنوان كمال الملك والسلطان .

ثالثًا : أنه يغشي الليل النهار أي يجعل الليل غشاء للنهار ، أي غطاء له فهو كالثوب يسدل على ضوء النهار فيغطيه .

رابعًا : أنه جعل الشمس والقمر والنجوم مذللات بأمره – جل سلطانه – يأمرهن بما يشاء لمصلحة العباد .

خامسًا : عموم ملكه وتمام سلطانه حيث كان له الخلق والأمر ؛ لا لغيره .

سادسًا : عموم ربوبيته للعالمين كلهم .

(٢) يشير المؤلف رحمه الله تعالى إلى قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ

والدَّليلُ[1] **قولُهُ تعالَى :** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ[2] ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ[3] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[4] ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا[5] وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً[6] وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً[7] فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ[8] فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا[9]

وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

فالرب : هو المعبود ، أي : هو الذي يستحق أن يُعْبَد ، أو هو الذي يُعْبَد لاستحقاقه للعبادة ، وليس المعنى : أن كل من عُبِدَ ؛ فهو رب ، فالآلهة التي تُعْبَد من دون الله واتخذها عُبَّادُها أربابًا من دون الله ؛ ليست أربابًا ، والرب : هو الخالق ، المالك ، المدبر لجميع الأمور .

(١) أي الدليل على أن الرب هو المستحق للعبادة .

(٢) النداء موجه لجميع الناس من بني آدم ، أمرهم الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له ، فلا يجعلوا له أندادًا ، ويبين أنه إنما استحق العبادة لكونه هو الخالق وحده لا شريك له .

(٣) قوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ هذه صفة كاشفة تعلل ما سبق ؛ أي اعبدوه ؛ لأنه ربكم الذي خلقكم ، فمن أجل كونه الرب الخالق كان لزامًا عليكم أن تعبدوه ، ولهذا نقول : يلزم كل من أقر بربوبية الله أن يعبده وحده ، وإلا كان متناقضًا .

(٤) أي من أجل أن تحصلوا على التقوى ، والتقوى : هي اتخاذ وقاية من عذاب الله ﷻ باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

(٥) أي جعلها فراشًا ومهادًا نستمتع فيها من غير مشقة ولا تعب ، كما ينام الإنسان على فراشه .

(٦) أي فوقنا ؛ لأن البناء يصير فوق ، السماء بناء لأهل الأرض ، وهي سقف محفوظ كما قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٢] .

(٧) أي أنزل من العلو من السحاب ماء طهورًا كما قال تعالى : ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل الآية : ١٠] .

(٨) أي عطاء لكم ، وفي آية أخرى : ﴿مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ [النازعات : ٣٣] .

(٩) أي لا تجعلوا لهذا الذي خلقكم – وخلق الذين من قبلكم ، وجعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء ، وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم – لا تجعلوا له أندادًا تعبدونها كما تعبدون الله ، أو تحبونها كما تحبون الله ؛ فإن ذلك غير لائق بكم لا عقلًا ولا شرعًا .

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ[(١)]﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢] .

قال ابنُ كثيرٍ[(٢)] رحِمه اللَّهُ تعالَى : « الخَالِقُ لهذه الأشياءِ هو المُسْتَحِقُّ للعبَادَةِ » .

وأنواعُ العبَادَةِ التِي أمرَ اللَّهُ بها[(٣)] : مثلُ الإسلامِ ، والإيمانِ ، والإحسانِ ؛ ومِنه الدُّعاءُ ، والخَوفُ ، والرَّجاءُ ، والتوكُّلُ ، والرَّغبةُ ، والرَّهبَةُ ، والخُشوعُ ، والخَشْيَةُ ، والإنَابَةُ ، والاستعَانَةُ ، والاستعَاذَةُ ، والاستغَاثَةُ ، والذَّبحُ ، والنَّذْرُ ،

(١) أي تعلمون أنه لا ند له وأنه بيده الخلق والرزق والتدبير فلا تجعلوا له شريكًا في العبادة .

(٢) هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي الحافظ المشهور صاحب التفسير والتاريخ من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة[١] .

(٣) لما بيَّن المؤلف رحمه الله تعالى أن الواجب علينا أن نعبد الله وحده لا شريك له ، بيَّن فيما يأتي شيئًا من أنواع العبادة فقال : وأنواع العبادة مثل الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وهذه الثلاثة – الإسلام ، والإيمان ، والإحسان – هي الدين كما جاء ذلك فيما رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا » . قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرني عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ». قال : فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ». قال : فأخبرني عن أماراتها ؟ قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشَّاء يتطاولون في البُنيان » ، ثم انطلق فلبثت مليًا ، ثم قال لي : « يا عمر ، أتدري من السائل ؟ » قلت : الله

[١] انظر ترجمته في « الدرر الكامنة » (٣٧٣/١) ، و« ذيل طبقات الحفاظ » (ص٥٧) للحسيني ، و« الأعلام » (٣٢٠/١) ، و« ذيل تذكرة الحفاظ » (ص٣٦١) للسيوطي ، و« طبقات المفسرين » (١١٢/١) للداودي ، و« شذرات الذهب » (٢٣١/٦) لابن العماد ، و« البدر الطالع » (١٥٣/١) .

وغيرُ ذلكَ مِن أنوَاع العبادَةِ التي أمَرَ اللَّهُ بها كلِّها للَّهِ تعالَى(١) .

والدليـــلُ قولُه تعالَى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن : ١٨] .

فمَن صَرَف مِنها شَيئًا لغَير اللَّهِ فهُو مُشرِكٌ كافرٌ ، والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢) [المؤمنون : ١١٧] .

وفي الحديثِ : « الدُّعاءُ مُخُّ العبَادَة » .

ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »[١] . فجعل النبي ﷺ هذه الأشياء هي الدين ، وذلك أنها متضمنة للدين كله .

(١) أي كل أنواع العبادة مما ذكر وغيره لله وحده لا شريك له ، فلا يحل صرفها لغير الله تعالى .

(٢) ذكر المؤلف رحمه الله تعالى جملة من أنواع العبادة ، وذكر أن مَنْ صرف منها شيئًا لغير الله فهو مشرك كافر ، واستدل بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ . وبقوله : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ .

ووجه الدلالة من الآية الأولى : أن الله تعالى أخبر أن المساجد - وهي مواضع السجود أو أعضاء السجود - لله[٢] ، وَرَتَّبَ على ذلك قوله : ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ، أي لا تعبدوا معه غيره فتسجدوا له .

ووجه الدلالة من الآية الثانية بأن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن مَنْ يدعو مع الله إلهًا آخر فإنه كافر ؛ لأنه قال : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ، وفي قوله : ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه لا يمكن أن يكون برهان على تعدد الآلهة ، فهذه الصفة ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفة كاشفة مبينة للأمر ، وليست صفة مقيدة تخرج ما فيه برهان ؛ لأنه لا يمكن

---

[١] تقدم تخريجه .

[٢] إذا جعلت المساجد في الآية : بمعنى مواضع السجود فواحدها مسجِد بكسر الجيم ، وإذا جعلت بمعنى الأعضاء فواحدها مسجَد بفتح الجيم . وقيل أيضًا : هي بمعنى السجود ، يقال : سجدت سجودًا ومسجَدًا . ورجح القرطبي أنها مواضع السجود . وانظر التفاسير في تفسير آية الجن رقم ١٨.

والدليلُ قولُهُ تعالَى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١) [غافر : ٦٠] .

أن يكون برهان على أن مع الله إلهًا آخر[١] .

(١) هذا شروع من المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في أدلة أنواع العبادة التي ذكرها في قوله : « وأنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام والإيمان والإحسان ومنه الدعاء . . » إلخ ، فبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بذكر الأدلة على الدعاء ، وسيأتي – إن شاء الله – تفصيل أدلة الإسلام والإيمان والإحسان .

واستدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بما يروى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الدعاء مخ العبادة »[٢] .

واستدل كذلك بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ، فدلت الآية الكريمة على أن الدعاء من العبادة ، ولولا ذلك ما صح أن يقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ، فمن دعا غير الله عَزَّ وَجَلَّ بشيء لا يقدر عليه إلا الله ؛ فهو مشرك كافر ، سواء كان المدعو حيًّا أو ميتًا .

ومَن دعا حيًّا بما يقدر عليه مثل أن يقول : يا فلان أطعمني ، يا فلان اسقني ؛ فلا شيء فيه .

ومَن دعا ميتًا أو غائبًا بمثل هذا فإنه مشرك ؛ لأن الميت أو الغائب لا يمكن أن يقوم بمثل هذا ، فدعاؤه إياه يدل على أنه يعتقد أن له تصرفًا في الكون فيكون بذلك مشركًا .

واعلم أن الدعاء نوعان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة .

فدعاء المسألة : هو دعاء الطلب ، أي : طلب الحاجات ، وهو عبادة إذا كان من العبد لربه ؛

---

[١] انظر في ذلك « الكشاف » (١/٨٢٥) ، و« البرهان في علوم القرآن » (٢/٤٣٠) للزركشي ، و« الإتقان » (٢/٢٠٨) للسيوطي ، و« أحكام القرآن » (٣/١٠٩) للجصاص .

[٢] **ضعيف بهذا اللفظ :** أخرجه الترمذي (٣٣٧١) ، والطبراني في « الأوسط » (٣١٩٦) ، و« الدعاء » (٨) من طريق ابن لهيعة ، عن عبيد الله بن أبي جعفر ، عن أبان بن صالح ، عن أنس بن مالك به .

قال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة » ، وقال الطبراني : « لم يَرْوِ هذا الحديث عن أبان إلا عبيد الله ، تفرد به ابن لهيعة » .

وابن لهيعة ضعيف ، وضعف الحديث الألباني رحمه الله .

والحديث ورد بلفظ آخر : « الدعاء هو العبادة » أخرجه أبو داود (١٤٧٩) ، والترمذي (٣٢٤٧ ، ٣٣٧٢) ، وابن ماجه (٣٨٢٨) ، والبخاري في « الأدب » (٧١٤) ، وأحمد (٤/ ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦) ، وصححه ابن حبان (٨٩٠) ، والحاكم (١/٤٩١) من حديث النعمان بن بشير .

ودليلُ الخَوفِ : قولُه تعالَى : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١) [آل عمران : ١٧٥] .

لأنه يتضمن الافتقار إلى الله تعالى واللجوء إليه ، واعتقاد أنه قادر كريم واسع الفضل والرحمة .
ويجوز إذا صدر من العبد لمثله من المخلوقين إذا كان المدعو يعقل الدعاء ويقدر على الإجابة[١] ، كما سبق في قول القائل : يا فلان أطعمني .
وأما دعاء العبادة : فأن يتعبد به للمدعو طلبًا لثوابه وخوفًا من عقابه ، وهذا لا يصح لغير الله وصرفه لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة ، وعليه يقع الوعيد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] .

(١) الخوف هو الذعر ، وهو انفعال يحصل بتوقع ما فيه هلاك أو ضرر أو أذى ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن خوف أولياء الشيطان وأمر بخوفه وحده .
والخوف ثلاثة أنواع :
النوع الأولى : خوف طبيعي ، كخوف الإنسان من السبع والنار والغرق ، وهذا لا يلام عليه العبد ؛ قال الله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص : ١٨] ، لكن إذا كان هذا الخوف كما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ سببًا لترك واجب أو فعل محرم كان حرامًا ؛ لأن ما كان سببًا لترك واجب أو فعل محرم فهو حرام ، ودليل قوله تعالى : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .
والخوف من الله تعالى يكون محمودًا ، ويكون غير محمود .
فالمحمود ما كانت غايته أن يحول بينك وبين معصية الله ، بحيث يحملك على فعل الواجبات وترك المحرمات ، فإذا حصلت هذه الغاية سكن القلب واطمأن وغلب عليه الفرح بنعمة الله ، والرجاء لثوابه .
وغير المحمود ما يحمل العبد على اليأس من روح الله والقنوط ، وحينئذ يتحسر العبد وينكمش وربما يتمادى في المعصية لقوة يأسه .
النوع الثاني : خوف العبادة ، أن يخاف أحدًا يتعبد بالخوف له ، فهذا لا يكون إلا لله تعالى ، وصرفه لغير الله تعالى شرك أكبر .

---

[١] أي أن دعاء المسألة ، أو دعاء الطلب ، شرطه إذا كان لمخلوق أن يكون لحي موجود حاضر ؛ لأن الميت لا يعقل ، والغائب لا يسمع ، فلا يعقل منهما إجابة إلا إذا اعتقد من يدعوهما تصرفًا في الأمور ، وكذلك يشترط في دعاء المسألة أو الطلب للمخلوق أن يكون مقدورًا للعبد المخلوق ، يستطيع فعله .

ودليلُ الرَّجاءِ : قولُه تعالَى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١) [الكهف : ١١٠] .

ودليلُ التَّوَكُّلِ : قولُه تعالَى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] ، وقال : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٢) [الطلاق : ٣] .

النوع الثالث : خوف السر ، كأن يخاف صاحب القبر ، أو وليًا بعيدًا عنه لا يؤثر فيه لكنه يخافه مخافة سرٍّ فهذا أيضًا ذكره العلماء من الشرك .

(١) الرجاء طمع الإنسان في أمر قريب المنال ، وقد يكون في بعيد المنال تنزيلًا له منزلة القريب . والرجاء المتضمن للذل والخضوع لا يكون إلا لله ﷻ وصرفه لغير الله تعالى شرك إما أصغر ، وإما أكبر بحسب ما يقوم بقلب الراجي . وقد استدل المؤلف بقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف : ١١٠] . واعلم أن الرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله ورجا ثوابها ، أو تاب من معصيته ورجا قبول توبته ، فأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍّ مذموم .

(٢) التوكل على الشيء : الاعتماد عليه ، والتوكل على الله تعالى : الاعتماد على الله تعالى كفاية وحسبًا في جلب المنافع ودفع المضار ، وهو من تمام الإيمان وعلاماته لقوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] ، وإذا صدق العبد في اعتماده على الله تعالى كفاه الله تعالى ما أهمه لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي كافيه ، ثم طمأن المتوكل بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق : ٣] فلا يعجزه شيء أراده .

واعلم أن التوكل أنواع :

الأول : التوكل على الله تعالى ، وهو من تمام الإيمان وعلامات صدقه ، وهو واجب لا يتم الإيمان إلا به وسبق دليله .

الثاني : توكل السر ، بأن يعتمد على ميت في جلب منفعة ، أو دفع مضرة فهذا شرك أكبر ؛ لأنه لا يقع إلا ممّن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سِرِّيًا في الكون ، ولا فرق بين أن يكون نبيًا ، أو وليًا ، أو طاغوتًا عدوًا لله تعالى .

الثالث : التوكل على الغير فيما يتصرف فيه الغير مع الشعور بعلو مرتبته وانحطاط مرتبة المتوكل عنه ، مثل أن يعتمد عليه في حصول المعاش ونحوه فهذا نوع من الشرك

ودليلُ الرَّغبةِ[١] والرَّهْبَةِ[٢] والخُشُوعِ[٣] : قولُه تعالَى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٤] [الأنبياء : ٩٠] .

الأصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه . أما لو اعتمد عليه على أنه سبب وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده فإن ذلك لا بأس به ، إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله .

الرابع : التوكل على الغير فيما يتصرف فيه المتوكل ، بحيث ينيب غيره في أمر تجوز فيه النيابة ، فهذا لا بأس به بدلالة الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، فقد قال يعقوب لبنيه : ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف : ٨٧] ، ووكل النبي ﷺ على الصدقة عمالًا وحفاظًا ، ووكل في إثبات الحدود وإقامتها ، ووكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هديه في حجة الوداع أن يتصدق بجلودها وجلالها ، وأن ينحر ما بقي من المائة بعد أن نحر ﷺ بيده ثلاثًا وستين[١] . وأما الإجماع على جواز ذلك فمعلوم من حيث الجملة.

(١) **الرغبة** : محبة الوصول إلى الشيء المحبوب .

(٢) **والرهبة** : الخوف المثمر للهرب من المخوف ، فهي خوف مقرون بعمل .

(٣) **الخشوع** : الذل والتطامن لعظمة الله بحيث يستسلم لقضائه الكوني والشرعي .

(٤) في هذه الآية الكريمة وصف الله تعالى الـمُخلَص من عباده بأنهم يدعون الله تعالى رغبًا ورهبًا مع الخشوع له ، والدعاء هنا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ، فهم يدعون الله رغبة فيما عنده ، وطمعًا في ثوابه ، مع خوفهم من عقابه وآثار ذنوبهم ، والمؤمن ينبغي أن يسعى إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء ، ويُغَلِّب الرجاء في جانب الطاعة ؛ لينشط عليها ويؤمل قبولها ، ويغلِّب الخوف إذا همَّ بالمعصية ؛ ليهرب منها وينجو من عقابها .

وقال بعض العلماء : يغلِّب جانب الرجاء في حال المرض ، وجانب الخوف في حال الصحة ؛ لأن المريض منكسر ضعيف النفس ، وعسى أن يكون قد اقترب أجله فيموت وهو يحسن الظن بالله عز وجل ، وفي حال الصحة يكون نشيطًا مؤملًا طول البقاء فيحمله ذلك على الأشر والبطر فيغلِّب جانب الخوف ليسلم من ذلك .

---

[١] حديث جابر الطويل في الحج ، أخرجه مسلم (١٢١٨) .

ودليلُ الـخَشيةِ : قولُه تعالَى : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[1] [البقرة : ١٥٠].
ودليلُ الإنابةِ : قوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾[2] [الزمر : ٥٤] .
ودليلُ الاستعانَةِ : قولُه تعالَى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وفي الحديثِ : « إذا استعنتَ فاسْتَعِن باللَّهِ »[3] .

وقيل : يكون رجاؤه وخوفه واحدًا سواء ؛ لئلا يحمله الرجاء على الأمن من مكر الله ، والخوف على اليأس من رحمة الله ، وكلاهما قبيح مهلك لصاحبه .

(١) **الخشية هي** : الخوف المبني على العلم بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه ؛ لقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر : ٢٨] ، أي العلماء بعظمته وكمال سلطانه ، فهي أخص من الخوف ، ويتضح الفرق بينهما بالمثال : فإذا خفت من شخص لا تدري هل هو قادر عليك أم لا ؟ فهذا خوف ، وإذا خفت من شخص تعلم أنه قادر عليك فهذه خشية ، ويقال في أقسام أحكام الخشية ما يقال في أقسام أحكام الخوف .

(٢) **الإنابة** : الرجوع إلى الله تعالى بالقيام بطاعته واجتناب معصيته ، وهي قريبة من معنى التوبة ، إلا أنها أرق منها لما تشعر به من الاعتماد على الله واللجوء إليه ، ولا تكون إلا لله تعالى ، ودليلها قوله تعالى : ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ .
والمراد بقوله تعالى : ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ الإسلام الشرعي ، وهو الاستسلام لأحكام الله الشرعية ، وذلك أن الإسلام لله تعالى نوعان :
الأول : إسلام كوني : وهو الاستسلام لحكمه الكوني ، وهذا عام لكل مَنْ في السماوات والأرض - من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر - لا يمكن لأحد أن يستكبر عنه ، ودليله قوله تعالى : ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران : ٨٣] .
الثاني : إسلام شرعي : وهو الاستسلام لحكمه الشرعي ، وهذا خاص بمن قام بطاعته من الرسل وأتباعهم بإحسان ، ودليله في القرآن كثير ، ومنه هذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

(٣) **الاستعانة** : طلب العون ، وهي أنواع :
الأول : الاستعانة بالله : وهي الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه ، وتفويض الأمر إليه ، واعتقاد كفايته ، وهذه لا تكون إلا لله تعالى ، ودليلها قوله تعالى :

ودليلُ الاستعاذَةِ(١) : قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق : ١] ،

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، ووجه الاختصاص أن الله تعالى قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ وقاعدة اللغة التي نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص[١] ، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالى شركًا مخرجًا عن الملة .

الثاني : الاستعانة بالمخلوق على أمر يقدر عليه : فهذه على حسب المستعان عليه ، فإن كانت على بِرٍّ ؛ فهي جائزة للمُستَعِين ، مشروعة للمُعِين لقوله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٢] .

وإن كانت على إثم ؛ فهي حرام - على المستعين والمُعِين - لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة : ٢] .

وإن كانت على مباح ؛ فهي جائزة - للمستعين والمعين - لكن المُعِين قد يُثاب على ذلك ثواب الإحسان إلى الغير ، ومِنْ ثَمَّ تكون في حقه مشروعة لقوله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥]

الثالث : الاستعانة بمخلوق حي حاضر غير قادر : فهذه لغو لا طائل تحتها ، مثل أن يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل .

الرابع : الاستعانة بالأموات مطلقًا أو بالأحياء على أمر غائب لا يقدرون على مباشرته : فهذا شرك ؛ لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون .

الخامس : الاستعانة بالأعمال والأحوال المحبوبة إلى الله تعالى : وهذه مشروعة بأمر الله تعالى في قوله : ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وقد استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى للنوع الأول بقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٤] ، وقوله ﷺ : « إذا استعنت فاستعن بالله »[٢] .

(١) **الاستعاذة :** طلب الإعاذة ، والإعاذة : الحماية من مكروه ، فالمستعيذ مُحتَمٍ بمن استعاذ

[١] انظر : « البرهان في علوم القرآن » (٣/٢٢٦) ، و« الإتقان » (٢/١٤٠) .

[٢] **حسن :** أخرجه الترمذي (٢٥١٦) ، وأحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧) من حديث ابن عباس ، وإسناده حسن ، وانظر رسالة ابن رجب : « نور الاقتباس في وصية النبي لابن عباس » .

و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

به ومعتصم به .

والاستعاذة أنواع :

الأول : الاستعاذة بالله تعالى : وهي المتضمنة لكمال الافتقار إليه ، والاعتصام به ، واعتقاد كفايته وتمام حمايته من كل شيء حاضر أو مستقبل ، صغير أو كبير ، بشر أو غير بشر ، ودليلها قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ إلى آخر السورة ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ إلى آخر السورة .

الثاني : الاستعاذة بصفة من صفاته : ككلامه وعظمته وعزته ونحو ذلك ، ودليل ذلك قوله ﷺ : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق »[١]، وقوله : « أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »[٢]، وقوله في دعاء الألم : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[٣]، وقوله : « أعوذ برضاك من سخطك »[٤]، وقوله ﷺ حين نزل قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال : « أعوذ بوجهك »[٥].

الثالث : الاستعاذة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على العوذ : فهذا شرك ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]

الرابع : الاستعاذة بما يمكن العوذ به من المخلوقين من البشر أو الأماكن أو غيرها : فهذا جائز ، ودليله قوله ﷺ في ذكر الفتن : « من تشرف لها تستشرفه ، ومن وجد

---

[١] أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث سعد بن أبي وقاص .

[٢] **صحيح** : أبو داود (٥٠٧٤) ، وابن ماجه (٣٨٧١) ، وأحمد (٢/٢٥) ، وصححه ابن حبان (٩٦١) ، والحاكم (١/٥١٧) من حديث عبد الله بن عمر ، وقوله : « أغتال » أي يخسف بي .

[٣] أخرجه مسلم (٢٢٠٢) ، وأبو داود (٣٨٩١) ، والترمذي (٢٠٨٠) ، وابن ماجه (٣٥٢٢) واللفظ له ، من حديث عثمان بن أبي العاص .

[٤] أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة .

[٥] أخرجه البخاري (٧٣١٣) من حديث جابر بن عبد الله .

وَدَلِيلُ الاستغاثَـةِ : قولُه تعالَى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾[(١)] [الأنفال : ٩] .

ملجأ أو معاذًا فليعذ به » متفق عليه[١] . وقد بيَّن ﷺ هذا الملجأ والمعاذ بقوله : « فمن كان له إبل فليلحق بإبله » الحديث رواه مسلم[٢] ، وفي صحيحه أيضًا عن جابر رضي الله عنه أن امرأة من بني مخزوم سرقت ، فَأُتِيَ بها النبي ﷺ ، فعاذت بأم سلمة[٣] ... الحديث ، وفي صحيحه أيضًا عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث » الحديث[٤] .

ولكن إن استعاذ من شر ظالم وجب إيواؤه وإعاذته بقدر الإمكان ، وإن استعاذ ليتوصل إلى فعل محظور ، أو الهرب من واجب حرم إيواؤه .

(١) **الاستغاثة** : طلب الغوث وهو الإنقاذ من الشدة والهلاك .

وهو أقسام :

الأول : الاستغاثة بالله عز وجل : وهذا من أفضل الأعمال وأكملها ، وهو دأب الرسل وأتباعهم ، ودليله ما ذكره الشيخ رحمه الله ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال : ٩] ، وكان ذلك في غزوة بدر حين نظر النبي ﷺ إلى المشركين في ألف رجل ، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا فدخل العريش يناشد ربه عز وجل رافعًا يديه مستقبل القبلة يقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » وما زال يستغيث بربه رافعًا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذ أبو بكر رضي الله عنه رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك وعدك ، فأنزل الله هذه الآية[٥] .

---

[١] **متفق عليه** : أخرجه البخاري (٧٠٨١) ، ومسلم (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة .

[٢] أخرجه مسلم (٢٨٨٧) من حديث أبي بكرة .

[٣] أخرجه مسلم (١٦٨٩) من حديث جابر .

[٤] أخرجه مسلم (٢٨٨٢) من حديث أم سلمة ، وانظر « شرح النووي » في هل الحديث من مسند أم سلمة أو من مسند عائشة أو حفصة .

[٥] أخرجه مسلم (١٧٦٣) من حديث عمر ، وأخرجه البخاري (١٩١٥) من حديث ابن عباس ، وفيه : =

ودليلُ الذَّبحِ : قولُه تعالَى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾(١) [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، ومِن السُّنَّة: «لَعَنَ اللَّهُ مَن ذَبَحَ لغيرِ اللَّهِ»[١] .

الثاني : الاستغاثة بالأموات أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين على الإغاثة : فهذا شرك ؛ لأنه لا يفعله إلا من يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيًا في الكون فيجعل لهم حظًّا من الربوبية ، قال الله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

الثالث : الاستغاثة بالأحياء العالمين القادرين على الإغاثة : فهذا جائز كالاستعانة بهم ، قال الله تعالى في قصة موسى : ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

الرابع : الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية : مثل أن يستغيث الغريق برجل مشلول فهذا لغو وسخرية بمن استغاث به ، فيمنع منه لهذه العلة ، ولعلة أخرى وهي - الغريق - ربما اغتر بذلك غيره فتوهم أن لهذا المشلول قوة خفية ينقذ بها من الشدة .

(١) **الذبح :** إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص .

ويقع على وجوه :

الأول : أن يقع عبادة ، بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى ، وصرفه لغير الله شرك أكبر ودليله ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

الثاني : أن يقع إكرامًا لضيف أو وليمة لعرس أو نحو ذلك ، فهذا مأمور به إما وجوبًا أو استحبابًا لقوله ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٢].

= «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم» . فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربك ، وهو في الدرع فخرج وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥ ، ٤٦].

[١] أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب .

[٢] **متفق عليه :** البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة .

ودليلُ النذرِ(١) : قولُه تعالَى : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾(٢) [الإنسان : ٧] .

وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف « **أَوْلِمْ ولو بشاة** »[١] .

الثالث : أن يقع على وجه التمتع بالأكل أو الاتجار به ونحو ذلك ، فهذا من قسم المباح ، فالأصل فيه الإباحة لقوله تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾ [يس : ٧١، ٧٢] وقد يكون مطلوبًا أو منهيًا عنه حسبما يكون وسيلة له .

(١) أي دليل كون النذر من العبادة قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان : ٧] .

(٢) وجه الدلالة من الآية أن الله أثنى عليهم لإيفائهم النذر ، وهذا يدل على أن الله يحب ذلك ، وكل محبوب لله من الأعمال فهو عبادة .

ويؤيد ذلك قوله : ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ .

واعلم أن النذر الذي امتدح الله تعالى هؤلاء القائمين به هو جميع العبادات التي فرضها الله ﷻ ، فإن العبادات الواجبة إذا شرع فيها الإنسان فقد التزم بها ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٩] .

والنذر : الذي هو إلزام الإنسان نفسه بشيء ما ، أو طاعة لله غير واجبة ؛ مكروه ، وقال بعض العلماء : إنه محرم ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل »[٢] ، ومع ذلك فإذا نذر الإنسان طاعة لله وجب عليه فعلها لقول النبي ﷺ : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه** »[٣] .

والخلاصة : أن النذر يطلق على العبادات المفروضة عمومًا ، ويطلق على النذر الخاص ، وهو إلزام الإنسان نفسه بشيء لله ﷻ ، وقد قسم العلماء النذر الخاص إلى أقسام ، ومحل بسطها كتب الفقه .

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٢٠٤٩) ، ومسلم (١٤٢٧) من حديث أنس ، وأخرجه البخاري (٢٠٤٨) من حديث عبد الرحمن بن عوف .

[٢] **متفق عليه** : البخاري (٦٦٠٨) ، ومسلم (١٦٣٩) واللفظ له من حديث ابن عمر .

[٣] أخرجه البخاري (٦٧٠٠) من حديث عائشة .

الأصلُ الثَّاني(١) :

مَعرفَةُ دِينِ الإسلامِ ، بالأدلَّةِ ، وهو : الاستسلامُ(٢) للَّهِ بالتَّوحيدِ(٣) والانقيادُ له بالطَّاعَةِ(٤) ، والبَرَاءَةُ مِن الشِّركِ وأهلِهِ(٥) .

وهو ثَلاثُ مَرَاتبَ(٦) : الإسلامُ ، والإيمانُ ، والإحسانُ .

وكلُّ مرتَبَة لها أركانٌ(٧) .

---

(١) أي من الأصول الثلاثة : معرفة دين الإسلام بالأدلة يعني أن يعرف دين الإسلام بأدلته من الكتاب والسنة .

(٢) دين الإسلام وإن شئت فقل : الإسلام هو : « الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله » فهو متضمن لأمور ثلاثة .

(٣) أي بأن يستسلم العبد لربه استسلاما شرعيًا ، وذلك بتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة ، وهذا الإسلام هو الذي يحمد عليه العبد ويثاب عليه ، أما الاستسلام القدري فلا ثواب فيه ؛ لأنه لا حيلة للإنسان فيه قال الله تعالى : ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

(٤) وذلك بفعل أوامره واجتناب نواهيه ؛ لأن الطاعة : طاعة في الأمر بفعله ، وطاعة في النهي بتركه .

(٥) البراءة من الشرك أي أن يتبرأ منه ، ويتخلى منه ، وهذا يستلزم البراءة من أهله قال الله تعالى : ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة : ٤]

(٦) بيّن المؤلف رحمه الله تعالى أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب بعضها فوق بعض وهي الإسلام ، والإيمان ، والإحسان .

(٧) دليل ذلك قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جاء جبريل يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وبيّن له ﷺ ذلك وقال : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »[١] .

---

[١] تقدم تخريجه .

فأركانُ الإسلامِ خمسةٌ(١) : شهادةُ أن لَا إلهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ(٢)، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحَجُّ بيتِ اللَّهِ الحرام.

فدليلُ الشَّهادَةِ : قولُه تعالَى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِالْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٣) [آل عمران : ١٨].

ومعنَاهَا : لا مَعبُودَ بحقٍّ إلَّا اللَّهُ؛ « لَا إلهَ » نَافيًا جَميعَ ما يُعبدُ مِن دُونِ اللَّهِ، « إلَّا اللَّهُ » مُثبِتًا العبَادَةَ للَّهِ وحدَهُ، لا شَرِيكَ له في عبادتِهِ، كمَا أنه لا شَرِيكَ له

---

(١) دليل ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام »[١].

(٢) شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ ركن واحد، وإنما كانتا ركنا واحدًا مع أنهما من شقين؛ لأن العبادات تنبني على تحقيقهما معًا، فلا تقبل العبادة إلا بالإخلاص لله ﷻ، وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا الله، واتباع الرسول ﷺ وهو ما تتضمنه شهادة أن محمدًا رسول الله.

(٣) في الآية الكريمة : شهادة الله لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم بذلك، وأنه تعالى قائم بالقسط أي : العدل، ثم قرر ذلك بقوله : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وفي هذه الآية منقبة عظيمة لأهل العلم حيث أخبر أنهم شهداء معه ومع الملائكة، والمراد بهم أولو العلم بشريعته ويدخل فيهم دخولًا أوليًا[٢] رسله الكرام.

وهذه الشهادة أعظم شهادة لعظم الشاهد والمشهود به، فالشاهد هو الله وملائكته، وأولو العلم، والمشهود به توحيد الله في ألوهيته، وتقرير ذلك ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

---

[١] متفق عليه : البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

[٢] أي من باب أَوْلى.

في مُلْكِهِ[(١)] .

وتفسيرُهَا الذي يُوضِّحُهَا : قولُه تعالَى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[(٢)] لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ

---

(١) قوله : ومعناها ؛ أي معنى لا إله إلا الله : لا معبود بحق إلا الله ، فشهادة أن لا إله إلا الله أن يعترف الإنسان بلسانه وقلبه بأنه لا معبود بحق إلا الله ﷻ ؛ لأنه « إله » بمعنى مألوه ، والتأله التعبد .

وجملة « لا إله إلا الله » مشتملة على نفي وإثبات ، أما النفي فهو « لا إله » وأما الإثبات « إلا الله » .

و« الله » لفظ الجلالة بدل من خبر « لا » المحذوف والتقدير « لا إله حق إلا الله » وبتقديرنا الخبر بهذه الكلمة « حق » يتبين الجواب عن الإشكال التالي : وهو كيف يقال : « لا إله إلا الله » مع أن هناك آلهة تعبد من دون الله ، وقد سماها الله تعالى آلهة ، وسماها عابدوها آلهة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود : ١٠١] ، وكيف يمكن أن نثبت الألوهية لغير الله ﷻ والرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، والجواب على هذا الإشكال يتبين بتقدير الخبر في « لا إله إلا الله » فنقول : هذه الآلهة التي تعبد من دون الله هي آلهة ، لكنها آلهة باطلة ليست آلهة حقة ، وليس لها من حق الألوهية شيء ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج : ٦٢] ، ويدل لذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم : ١٩-٢٣] ، وقوله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف : ٤٠] ، إذن فمعنى « لا إله إلا الله » لا معبود حق إلا الله ﷻ ، فأما المعبودات سواه فإن ألوهيتها التي يزعمها عابدوها ليست حقيقية أي ألوهية باطلة .

(٢) إبراهيم : هو خليل الله إمام الحنفاء ، وأفضل الرسل بعد محمد ﷺ ، وأبوه آزر .

إِنَّنِي بَرَآءٌ(١) مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى(٢) فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ(٣) ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا(٤) كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ(٥) لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٦)﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] ، وقوله : ﴿قُلْ(٧) يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ(٨) سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ(٩) وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ(٩) فَإِن تَوَلَّوْا۟(١٠) فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(١١)﴾ [آل عمران : ٦٤] .

---

(١) (براء) صفة مشبهة من البراءة ، وهي أبلغ من بريء. وقوله : ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يوافي قول : « لا إله » .

(٢) خلقني ابتداء على الفطرة ، وقوله : ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يوافي قوله : « إلا الله » فهو سبحانه وتعالى لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، ففي هذه الآية حصر الخلق والأمر لله رب العالمين وحده فله الخلق وله الأمر الكوني الشرعي .

(٣) ﴿سَيَهْدِينِ﴾ سيدلني على الحق ويوفقني له .

(٤) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي هذه الكلمة وهي البراءة من كل معبود سوى الله .

(٥) ﴿فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته .

(٦) ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها من الشرك .

(٧) الخطاب للنبي ﷺ لمناظرة أهل الكتاب اليهود والنصارى .

(٨) ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هذه الكلمة هي : ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فلا نعبد إلا الله هي معنى « لا إله إلا الله » ، ومعنى ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أننا نحن وإياكم سواء فيها .

(٩) أي لا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله ﷻ بحيث يُعظَّم كما يُعظَّم الله عز وجل ، ويعبد كما يعبد الله ، ويُجْعَلُ الحكمُ لغيره .

(١٠) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا عما دعوتموهم إليه .

(١١) أي فأعلنوا لهم وأشهدوهم أنكم مسلمون لله ، بريئون مما هم عليه من العناد والتولي عن هذه الكلمة العظيمة « لا إله إلا الله » .

ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ[١] عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[٢] حَرِيصٌ عَلَيْكُم[٣] بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ[٤]﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومعنَى شهادَةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ: طاعتُهُ فيمَا أمرَ، وتصديقُهُ فيما أخبَرَ، واجتنابُ ما عنه نَهَى وزَجَرَ، وأن لا يُعبدَ اللَّهُ إلَّا بما شرَعَ[٥].

---

(١) قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم بل هو من بينكم أيضًا كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

(٢) أي يشق عليه ما شق عليكم.

(٣) أي على منفعتكم ودفع الضر عنكم.

(٤) أي ذو رأفة ورحمة بالمؤمنين، وخص المؤمنين بذلك لأنه ﷺ مأمور بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، وهذه الأوصاف لرسول الله ﷺ تدل على أنه رسول الله حقًّا، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا تدل على أن محمدًا رسول الله حقًّا.

(٥) معنى شهادة «أن محمدًا رسول الله» هو الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأن محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول الله - ﷺ - إلى جميع الخلق من الجن والإنس، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولا عبادة لله تعالى إلا عن طريق الوحي الذي جاء به محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ومقتضى هذه الشهادة أن تصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر، وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا تعبد الله إلا بما شرع، ومقتضى هذه الشهادة أيضًا أن لا تعتقد أن لرسول الله ﷺ حقًّا في الربوبية وتصريف الكون، أو حقًّا في العبادة، بل هو ﷺ عبد لا يُعبَد ورسول لا يُكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا من النفع أو الضر إلا ما شاء الله، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى

ودليـــلُ الصـــلاةِ ، والزَّكـــاةِ(1) ، وتفسيرُ التوحيدِ : قولُه تعالَى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ(2) وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ(3) دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ(4)﴾ [البينة : ٥] .

خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام : ٥٠] . فهو عبد مأمور يتبع ما أُمِرَ به ، وقال الله تعالى : ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن : ٢١، ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

وبهذا تعلم أنه لا يستحق العبادة لا رسول الله ﷺ ولا من دونه من المخلوقين ، وأن العبادة ليست إلا لله تعالى وحده . ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] . وأن حقه ﷺ أن تنزله المنزلة التي أنزله الله تعالى إياها وهو أنه عبد الله ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه .

(١) أي أن الصلاة والزكاة من الدين قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ [البينة : ٥] . وهذه الآية عامة شاملة لجميع أنواع العبادة فلا بد أن يكون الإنسان فيها مخلصًا لله ﷻ حنيفًا متبعًا لشريعته .

(٢) هذا من باب عطف الخاص على العام ، لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من العبادة ، ولكنه سبحانه وتعالى نص عليهما لما لهما من الأهمية فالصلاة عبادة البدن ، والزكاة عبادة المال ، وهما قرينتان في كتاب الله ﷻ .

(٣) أي عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

(٤) أي دين الملة القيمة التي لا اعوجاج فيها ؛ لأنها دين الله ﷻ ودين الله مستقيم كما قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وهذه الآية الكريمة كما تضمنت ذكر العبادة والصلاة فقد تضمنت حقيقة التوحيد ،

ودليلُ الصّيام(١): قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢) [البقرة: ١٨٣].

ودليلُ الحجّ(٣): قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) [آل عمران: ٩٧].

وأنه الإخلاص لله ﷻ من غير ميل إلى الشرك، فمن لم يخلص لله لم يكن موحدًا، ومن جعل عبادته لغير الله لم يكن موحدًا.

(١) أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وفي قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فوائد:

أولًا: أهمية الصيام حيث فرضه الله ﷻ على الأمم من قبلنا، وهذا يدل على محبة الله ﷻ له، وأنه لازم لكل أمة.

ثانيًا: التخفيف على هذه الأمة حيث إنها لم تكلف وحدها بالصيام الذي قد يكون فيه مشقة على النفوس والأبدان.

ثالثًا: الإشارة إلى أن الله تعالى أكمل لهذه الأمة دينها حيث أكمل لها الفضائل التي سبقت لغيرها.

(٢) بيّن الله ﷻ في هذه الآية حكمة الصيام بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله بصيامكم وما يترتب عليه من خصال التقوى، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الفائدة بقوله: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[١].

(٣) أي دليل وجوبه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ إلخ.
وهذه الآية نزلت في السنة التاسعة من الهجرة، وبها كانت فريضة الحج، ولكن الله ﷻ قال: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ففيه دليل على أن من لم يستطع فلا حج عليه.

(٤) في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على أن ترك الحج ممن استطاع إليه سبيلًا يكون كفرًا، ولكنه كفر لا يخرج من الملة على قول جمهور العلماء

---

[١] أخرج البخاري (١٩٠٣) من حديث أبي هريرة.

المَرتبَةُ الثانيةُ(١) : الإيمانُ(٢) : وهو بِضْعٌ(٣) وسَبعُونَ شُعْبَةً(٤)، فَأعلاهَا قولُ : لا إِلهَ إلَّا اللَّهُ ، وأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَى(٥) عن الطَّرِيق ، والحياءُ(٦) شُعبةٌ مِن الإيمانِ .

لقول عبد الله بن شقيق : « كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة »[١].

(١) أي من مراتب الدين .

(٢) الإيمان في اللغة التصديق .

وفي الشرع : « اعتقاد بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، وهو بضع وسبعون شعبة » .

(٣) البضع : بكسر الباء من الثلاثة إلى التسعة .

(٤) الشعبة : الجزء من الشيء .

(٥) أي إزالة الأذى ، وهو ما يؤذي المارة من أحجار وأشواك ، ونفايات وقمامة وما له رائحة كريهة ونحو ذلك .

(٦) الحياء صفة انفعالية تحدث عند الخجل وتحجز المرء عن فعل ما يخالف المروءة .

والجمع بين ما تضمنه كلام المؤلف رحمه الله تعالى من أن الإيمان بضع وسبعون شعبة وأن الإيمان أركانه ستة أن نقول : الإيمان الذي هو العقيدة أصوله ستة وهي المذكورة في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حينما سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »[٢] .

وأما الإيمان الذي يشمل الأعمال وأنواعها وأجناسها فهو بضع وسبعون شبعة ، ولهذا سمى الله تعالى الصلاة إيمانًا في قوله : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، قال المفسرون : يعني صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ لأن الصحابة كانوا قبل أن يؤمروا بالتوجه إلى الكعبة يصلون إلى بيت المقدس .

---

[١] **صحيح** : أخرجه ابن أبي شيبة (رقم ١٣٨) ، ومحمد بن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (٩٤٨) ، والترمذي (١٤/٥) من طريق الجريري عن عبد الله بن شقيق والجريري مختلط ، لكن عبد الأعلى الراوي عنه عند ابن أبي شيبة روى عنه قبل الاختلاط ، وصححه النووي في « المجموع » (١٩/٣) ، وانظر « كتاب الصلاة وحكم تاركها » لابن القيم بتحقيقي .

[٢] تقدم تخريجه .

وأركَانُهُ سِتَّةٌ : أن تؤمِنَ باللَّهِ(١) ، ...

---

(١) **الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور :**

الأول : الإيمان بوجود الله تعالى :

وقد دل على وجوده تعالى : الفطرة ، والعقل ، والشرع والحس .

١- أما دلالة الفطرة على وجوده : فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم ، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها لقول النبي ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه »[١] .

٢- وأما دلالة العقل على وجود الله تعالى : فلأن هذه المخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها ، ولا يمكن أن توجد صدفة .

لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها ؛ لأن الشيء لا يخلق نفسه ؛ لأنه قبل وجوده معدوم فكيف يكون خالقًا ؟

ولا يمكن أن توجد صدفة ؛ لأن كل حادث لابد له من محدث ، ولأن وجودها على هذا النظام البديع ، والتناسق المتآلف ، والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها ، وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعًا باتًّا أن يكون وجودها صدفة ، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره ؟ !

وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها ، ولا أن توجد صدفة تعين أن يكون لها موجِد وهو الله رب العالمين .

وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل العقلي والبرهان القطعي في سورة الطور ، حيث قال : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] يعني أنهم لم يُخلَقوا من غير خالق ، ولا هم الذين خلقوا أنفسهم ، فتعين أن يكون خالقهم هو الله تبارك وتعالى ، ولهذا لما سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ سورة الطور فبلغ هذه الآيات : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور : ٣٥- ٣٧] - وكان جبير يومئذ مشركًا - قال : « كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما وقر الإيمان في

---

[١] متفق عليه : البخاري (١٣٥٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة .

....

قلبي » رواه البخاري مفرقًا[١].
ولنضرب مثلًا يوضح ذلك ، فإنه لو حدثك شخص عن قصر مشيد ، أحاطت به الحدائق ، وجرت بينها الأنهار ، ومُلئ بالفرش والأسرة ، وزين بأنواع الزينة من مقوماته ومكملاته ، وقال لك : إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجد نفسه ، أو وُجد هكذا صدفة بدون مُوجِد ، لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه ، وعددت حديثه سفهًا من القول ، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه وسمائه ، وأفلاكه وأحواله ، ونظامه البديع الباهر ، قد أوجد نفسه ، أو وُجد صدفة بدون مُوجِد ؟ !

٣- وأما دلالة الشرع على وجود الله تعالى : فلأن الكتب السماوية كلها تنطق بذلك ، وما جاءت به من الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق دليل على أنها من رب حكيم عليم بمصالح خلقه ، وما جاءت به من الأخبار الكونية التي شهد الواقع بصدقها دليل على أنها من رب قادر على إيجاد ما أخبر به .

٤- وأما أدلة الحس على وجود الله فمن وجهين :

أحدهما : أننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين ، وغوث المكروبين ، ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء : ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال : ٩] ، وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ : أن أعرابيًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فقال : يا رسول الله ، هلك المال ، وجاع العيال ، فادع الله لنا ، فرفع يديه ودعا ، فثار السحاب أمثال الجبال فلم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته . وفي الجمعة الثانية قام ذلك الأعرابي أو غيره . فقال : يا رسول الله ، تهدّم البناء وغرق المال ، فادعُ الله لنا ، فرفع يديه وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » ، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت[٢].

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشرائط الإجابة[٣].

---

[١] تقدم تخريجه .
[٢] **متفق عليه** : البخاري (٩٣٣) ، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس بنحوه .
[٣] انظر « الجواب الكافي » لابن القيم بتحقيقي .

....

الوجه الثاني : أن آيات الأنبياء التي تسمى (المعجزات) ويشاهدها الناس ، أو يسمعون بها ، برهان قاطع على وجود مرسلهم ، وهو الله تعالى ؛ لأنها أمور خارجة عن نطاق البشر ، يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ونصرًا لهم .

مثال ذلك : آية موسى ﷺ حين أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر ، فضربه فانفلق اثني عشر طريقًا يابسًا ، والماء بينها كالجبال ، قال الله تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء : ٦٣] .

ومثال ثان : آية عيسى ﷺ حيث كان يحيي الموتى ، ويخرجهم من قبورهم بإذن الله ، قال الله تعالى : ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ٤٩] ، وقال : ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ [المائدة : ١١٠] .

ومثال ثالث : لمحمد ﷺ حين طلبت منه قريش آية ، فأشار إلى القمر فانفلق فرقتين فرآه الناس[١] ، وفي ذلك قوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر : ١ - ٢] .

فهذه الآيات المحسوسة التي يجريها الله تعالى تأييدًا لرسله ، ونصرًا لهم ، تدل دلالة قطعية على وجوده تعالى .

الثاني : الإيمان بربوبيته ، أي بأنه وحده الرب لا شريك له ولا معين .

والرب : من له الخلق والملك والأمر ، فلا خالق إلا الله ، ولا مالك إلا هو ، ولا أمر إلا له ، قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، وقال : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر : ١٣] .

ولم يعلم أن أحدًا من الخلق أنكر ربوبية الله سبحانه ، إلا أن يكون مكابرًا غير معتقد بما يقول ، كما حصل من فرعون حين قال لقومه : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات : ٢٤] ، وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص : ٣٨] ، لكن ذلك ليس عن عقيدة ، قال اللّه تعالى : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل : ١٤] .

وقال موسى لفرعون فيما حكى الله عنه : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

[١] **متفق عليه** : البخاري (٣٨٦٨) ، ومسلم (٢٨٠٢) من حديث أنس بن مالك .

....

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].
ولهذا كان المشركون يقرون بربوبية الله تعالى، مع إشراكهم به في الألوهية، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].
وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وأمر الرب سبحانه شامل للأمر الكوني والشرعي؛ فكما أنه مدبر الكون، القاضي فيه بما يريد حسب ما تقتضيه حكمته، فهو كذلك الحاكم فيه بشرع العبادات وأحكام المعاملات حسبما تقتضيه حكمته، فمن اتخذ مع الله تعالى مشرعًا في العبادات أو حاكمًا في المعاملات فقد أشرك به ولم يحقق الإيمان.

الثالث: الإيمان بألوهيته: أي (بأنه وحده الإله الحق لا شريك له)، و «الإله» بمعنى المألوه «أي» المعبود حبًّا وتعظيمًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].
وكل ما اتُّخذ إلهًا مع الله – يعبد من دونه – فألوهيته باطلة، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وتسميتها آلهة لا يعطيها حق الألوهية، قال الله تعالى في اللات والعزى ومناة: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣].
وقال عن هود أنه قال لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١].
وقال عن يوسف أنه قال لصاحبي السجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

....

﴿ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف : ٣٩- ٤٠] ، ولهذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يقولون لأقوامهم : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ ، ولكن أبى ذلك المشركون ، واتخذوا من دون الله آلهة ، يعبدونهم مع الله سبحانه وتعالى ، ويستنصرون بهم ، ويستغيثون .

وقد أبطل الله تعالى اتخاذ المشركين هذه الآلهة ببرهانين عقليين :

الأول : أنه ليس في هذه الآلهة التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية ، فهي مخلوقة لا تخلق ، ولا تجلب نفعًا لعابديها ، ولا تدفع عنهم ضررًا ، ولا تملك لهم حياة ولا موتًا ، ولا يملكون شيئًا من السماوات ولا يشاركون فيه .

قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان : ٣] .

وقال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ : ٢٢- ٢٣] .

وقال : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف : ١٩١- ١٩٢] .

وإذا كانت هذه حال تلك الآلهة ، فإن اتخاذها آلهة من أسفه السفه ، وأبطل الباطل .

الثاني : أن هؤلاء المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى وحده الرب الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهذا يستلزم أن يوحدوه بالألوهية كما وحدوه بالربوبية ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١- ٢٢] .

وقال : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

وقال : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس : ٣١- ٣٢] .

....

الرابع : الإيمان بأسمائه وصفاته :

أي (إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو سنة رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تمثيل) ، قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وقال : ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم : ٢٧] .

وقال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] .

وقد ضل في هذا الأمر طائفتان :

إحداهما : (المعطلة) الذين أنكروا الأسماء والصفات أو بعضها ، زاعمين أن إثباتها يستلزم التشبيه ، أي تشبيه الله تعالى بخلقه .

وهذا الزعم باطل لوجوه منها :

الأول : أنه يستلزم لوازم باطلة كالتناقض في كلام الله سبحانه ، وذلك أن الله تعالى أثبت لنفسه الأسماء والصفات ، ونفى أن يكون كمثله شيء ، ولو كان إثباتها يستلزم التشبيه لزم التناقض في كلام الله ، وتكذيب بعضه بعضًا .

الثاني : أنه لا يلزم من اتفاق الشيئين في اسم أو صفة أن يكونا متماثلين ، فأنت ترى الشخصين يتفقان في أن كلًّا منهما إنسان سميع بصير متكلم ، ولا يلزم من ذلك أن يتماثلا في المعاني الإنسانية ، والسمع والبصر والكلام ، وترى الحيوانات لها أيد وأرجل وأعين ولا يلزم من اتفاقها هذا أن تكون أيديها وأرجلها وأعينها متماثلة .

فإذا ظهر التباين بين المخلوقات فيما تتفق فيه من أسماء ، أو صفات ، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم .

الطائفة الثانية : (المشبهة) الذين أثبتوا الأسماء والصفات مع تشبيه الله تعالى بخلقه زاعمين أن هذا مقتضى دلالة النصوص ؛ لأن الله تعالى يخاطب العباد بما يفهمون .

وهذا الزعم باطل لوجوه منها :

الأول : أن مشابهة الله تعالى لخلقه أمر باطل يبطله العقل ، والشرع ، ولا يمكن أن يكون مقتضى نصوص الكتاب والسنة أمرًا باطلًا .

وملائكته[١]، ...

الثاني: أن الله تعالى خاطب العباد بما يفهمون من حيث أصل المعنى، أما الحقيقة والكنه الذي عليه ذلك المعنى فهو مما استأثر الله تعالى بعلمه فيما يتعلق بذاته، وصفاته.

فإذا أثبت الله لنفسه أنه سميع، فإن السمع معلوم من حيث أصل المعنى (وهو إدراك الأصوات) لكن حقيقة ذلك بالنسبة إلى سمع الله تعالى غير معلومة؛ لأن حقيقة السمع تتباين حتى في المخلوقات، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

وإذا أخبر الله تعالى عن نفسه أنه استوى على عرشه، فإن الاستواء من حيث أصل المعنى معلوم، لكن حقيقة الاستواء التي هو عليه غير معلومة بالنسبة إلى استواء الله على عرشه؛ لأن حقيقة الاستواء تتباين في حق المخلوق، فليس الاستواء على كرسي مستقر كالاستواء على رحل بعير صعب نَفُورٍ، فإذا تباينت في حق المخلوق، فالتباين فيها بين الخالق والمخلوق أبين وأعظم.

والإيمان بالله تعالى على ما وصفنا يثمر للمؤمنين ثمرات جليلة منها:

الأولى: تحقيق توحيد الله تعالى بحيث لا يتعلق بغيره رجاءً، ولا خوفًا، ولا يعبد غيره.

الثانية: كمال محبة الله تعالى، وتعظيمه بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثالثة: تحقيق عبادته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

(١) **الملائكة**: عالم غيبي مخلوقون، عابدون لله تعالى، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، خلقهم الله تعالى من نور[١]، ومنحهم الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. وهم عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس ﷺ في قصة المعراج أن النبي ﷺ رفع له البيت المعمور في السماء؛ يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم[٢].

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بوجودهم.

---

[١] أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة.

[٢] **متفق عليه**: البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، وأخرجه =

....

الثاني : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه (كجبريل) ، ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالًا .

الثالث : الإيمان بما علمنا من صفاتهم ، كصفة (جبريل) فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق[١].

وقد يتحول الملك بأمر الله تعالى إلى هيئة رجل ، كما حصل (لجبريل) حين أرسله تعالى إلى مريم فتمثل لها بشرًا سويًّا ، وحين جاء إلى النبي ﷺ وهو جالس في أصحابه جاءه بصفة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد من الصحابة ، فجلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وسأل النبي ﷺ عن الإسلام ، والإيمان والإحسان ، والساعة ، وأماراتها ، فأجابه النبي ﷺ فانطلق . ثم قال النبي ﷺ : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم[٢].

وكذلك الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إلى إبراهيم ، ولوط كانوا في صورة رجال .

الرابع : الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى ، كتسبيحه ، والتعبد له ليلًا ونهارًا بدون ملل ولا فتور .

وقد يكون لبعضهم أعمال خاصة .

مثل : جبريل الأمين على وحي الله تعالى يرسله الله به إلى الأنبياء والرسل .

ومثل : ميكائيل الموكل بالقطر أي بالمطر والنبات .

ومثل : إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور عند قيام الساعة وبعث الخلق .

ومثل : ملك الموت الموكل بقبض الأرواح عند الموت .

= البخاري (٧٥١٧) ، ومسلم (١٦٢) عن أنس ، والبخاري (٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) عن أنس عن أبي ذر .

[١] أخرجه البخاري (٣٢٣٢) ، ومسلم (١٧٤) ، قال ابن مسعود في قوله : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال : إنه رأى جبريل له ستمائة جناح .

وأخرجه البخاري (٣٢٣٤) ، ومسلم (١٧٧) عن عائشة قالت : من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم ، ولكن قد رأى جبريل في صورته وخلقه سادٌّ ما بين الأفق . واللفظ للبخاري .

[٢] تقدم تخريجه .

....

ومثل : مالك الموكل بالنار وهو خازن النار .

ومثل : الملائكة الموكلين بالأجنة في الأرحام إذا تم للإنسان أربعة أشهر في بطن أمه ، بعث الله إليه ملكًا وأمره بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد[١] .

ومثل : الملائكة الموكلين بحفظ أعمال بني آدم وكتابتها لكل شخص ، ملكان : أحدهما عن اليمين ، والثاني عن الشمال .

ومثل : الملائكة الموكلين بسؤال الميت إذا وضع في قبره يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ، ودينه ، ونبيه[٢] .

والإيمان بالملائكة يثمر ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم بعظمة الله تعالى ، وقوته ، وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق .

الثانية : شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وكّل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم ، وكتابة أعمالهم ، وغير ذلك من مصالحهم .

الثالثة : محبة الملائكة على ما قاموا به من عبادة الله تعالى .

وقد أنكر قوم من الزائغين كون الملائكة أجسامًا ، وقالوا : إنهم عبارة عن قوى الخير الكامنة في المخلوقات ، وهذا تكذيب لكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين .

قال الله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] .

وقال : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وقال : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] .

وقال : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] .

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود .

[٢] تقدم تخريجه (ص ٢٣) .

وكُتُبِهِ(١)، ....

وقال في أهل الجنة : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد : ٢٣- ٢٤] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء ، إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض »[١].

وفيه أيضًا عنه قال : قال النبي ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد الملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الإمام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر »[٢].

وهذه النصوص صريحة في أن الملائكة أجسام لا قوى معنوية - كما قال الزائغون - وعلى مقتضى هذه النصوص أجمع المسلمون .

(١) **الكتب** : جمع (كتاب) بمعنى (مكتوب) .

والمراد بها هنا : الكتب التي أنزلها تعالى على رسله رحمة للخلق ، وهداية لهم ، ليصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة .

والإيمان بالكتب يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن نزولها من عند الله حقًّا .

الثاني : الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه كالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى ﷺ ، والزبور الذي أوتيه داود ﷺ ، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالًا .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارها ، كأخبار القرآن ، وأخبار ما لم يبدل أو يحرف من الكتب السابقة .

الرابع : العمل بأحكام ما لم ينسخ منها ، والرضا والتسليم به سواء فهمنا حكمته أم لم نفهمها ، وجميع الكتب السابقة منسوخة بالقرآن العظيم ، قال الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

[١] **متفق عليه** : البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة .

[٢] **متفق عليه** : البخاري (٣٢١١) ، ومسلم (٨٥٠) من حديث أبي هريرة .

ورُسُلِهِ[١] ، . . .

عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨] أي : (حاكمًا عليه) ، وعلى هذا فلا يجوز العمل بأي حكم من أحكام الكتب السابقة إلا ما صح منها وأقره القرآن .

والإيمان بالكتب يثمر ثمرات جليلة منها :

الأولى : العلم بعناية الله تعالى بعباده حيث أنزل لكل قوم كتابًا يهديهم به .

الثانية : العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم ، كما قال الله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] .

(١) الرسل : جمع (رسول) بمعنى (مرسل) أي (مبعوث) بإبلاغ شيء .

والمراد هنا : من أوحي إليه من البشر بشرع وأمر بتبليغه .

وأول الرسل نوح وآخرهم محمد ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن النبي ﷺ ذكر أن الناس يأتون إلى آدم ليشفع لهم فيعتذر ، إليهم ويقول : ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله - وذكر تمام الحديث[١] .

وقال الله تعالى في محمد ﷺ : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

ولم تخل أمة من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه ، أو نبي يوحى إليه بشريعة من قبله ليجددها ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة : ٤٤] .

والرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ وهو سيد المرسلين وأعظمهم جاهًا عند الله : ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ

---

[١] **متفق عليه :** البخاري (٧٥١٠) ، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس .

....

﴿لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢].

وتلحقهم خصائص البشرية من المرض، والموت، والحاجة إلى الطعام والشراب، وغير ذلك، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وصفه لربه تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩ - ٨١].

وقال النبي ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[١].

وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية له في أعلى مقاماتهم، وفي سياق الثناء عليهم فقال تعالى في نوح ﷺ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال في محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال في إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، صلى الله عليهم وسلم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧]. وقال في عيسى ابن مريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع. كما قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه، وعلى هذا فالنصارى الذين كذبوا محمدًا ﷺ ولم يتبعوه هم مكذبون للمسيح ابن مريم غير متبعين له أيضًا، لا سيما وأنه قد بشرهم بمحمد ﷺ ولا معنى لبشارتهم به إلا أنه رسول إليهم ينقذهم الله به من الضلالة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل: محمد وإبراهيم وموسى وعيسى

---

[١] **متفق عليه**: البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث ابن مسعود.

....

ونوح عليهم الصلاة والسلام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله تعالى في موضعين من القرآن في سورة الأحزاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي سورة الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً، قال اللـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

الثالث: تصديق ما صح عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وللإيمان بالرسل ثمرات جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى وعنايته بعباده حيث أرسل إليهم الرسل ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: محبة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم، والثناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنصح لعباده.

وقد كذب المعاندون رسلهم زاعمين أن رسل الله تعالى لا يكونون من البشر، وقد ذكر الله تعالى هذا الزعم وأبطله بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤- ٩٥]، فأبطل الله تعالى هذا الزعم بأنه لا بد أن يكون الرسول بشرًا؛ لأنه مرسل إلى أهل الأرض، وهم بشر، ولو كان أهل الأرض ملائكة لنزل الله عليهم من السماء ملكًا رسولاً، ليكون مثلهم، وهكذا حكى الله تعالى عن المكذبين للرسل أنهم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

والیومِ الآخرِ(١) ، ...

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [إبراهيم : ١٠- ١١] .

(١) اليوم الآخر : يوم القيامة الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء ؛ وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده ، حيث يستقر أهل الجنة في منازهم ، وأهل النار في منازلهم .

والإيمان باليوم الآخر يتضمن ثلاثة أمور :

الأول : الإيمان بالبعث : وهو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين ، حفاة غير منتعلين ، عراة غير مستترين ، غرلا غير مختتنين ، قال اللّه تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . والبعث : حق ثابت دل عليه الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٥- ١٦] .

وقال النبي ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة غرلًا » متفق عليه[١] .

وأجمع المسلمون على ثبوته ، وهو مقتضى الحكمة حيث تقتضي أن يجعل الله تعالى لهذه الخليقة معادًا يجازيهم فيه على ما كلفهم به على ألسنة رسله قال الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ [القصص : ٨٥] .

الثاني : الإيمان بالحساب والجزاء : يحاسب العبد على عمله ، ويجازى عليه ، وقد دل على ذلك الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية : ٢٥- ٢٦] ، وقال : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٧٥٩) واللفظ له ، وزادا : « عراة » من حديث عائشة .

....

وعن ابن عمر رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ – قال: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى أنه قد هلك قال: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] »[١] متفق عليه.

وصحَّ عن النبي ﷺ: «أن من همَّ بحسنة فعملها، كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأن من هم بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[٢].

وقد أجمع المسلمون على إثبات الحساب والجزاء على الأعمال، وهو مقتضى الحكمة؛ فإن الله تعالى أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وفرض على العباد قبول ما جاءوا به، والعمل بما يجب العمل به منه، وأوجب قتال المعارضين له وأحل دماءهم، وذرياتهم، ونساءهم، وأموالهم، فلو لم يكن حساب ولا جزاء لكان هذا من العبث الذي ينزه الرب الحكيم عنه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦-٧].

الثالث: الإيمان بالجنة والنار، وأنهما المآل الأبدي للخلق، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، الذين آمنوا بما أوجب الله عليهم الإيمان به، وقاموا بطاعة الله ورسوله، مخلصين لله متبعين لرسوله. فيها من أنواع النعيم مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

---

[١] **متفق عليه**: البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر.

[٢] **متفق عليه**: البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٦٢) من حديث ابن عباس.

....

وأما النار فهي دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين، الذين كفروا به وعصوا رسله، فيها من أنواع العذاب والنكال ما لا يخطر على البال قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

ويلتحق بالإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما يكون بعد الموت مثل:

(أ) **فتنة القبر**: وهي سؤال الميت بعد دفنه عن ربه، ودينه، ونبيه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ. ويضل اللـه الظالمين، فيقول الكافر: هاه، هاه، لا أدري. ويقول المنافق أو المرتاب: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

(ب) **عذاب القبر ونعيمه**: فيكون العذاب للظالمين من المنافقين والكافرين؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقال تعالى في آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤].

وفي صحيح مسلم من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: «فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، ثم أقبل بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار. فقال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال. قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال»[١].

---

[١] أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت.

....

وأما نعيم القبر فللمؤمنين الصادقين ؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة : ٨٣- ٨٩] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في المؤمن إذا أجاب الملكين في قبره : « ينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة . قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مَدَّ بصره »[١]. رواه أحمد وأبو داود في حديث طويل .

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها :

الأولى : الرغبة في فعل الطاعة ، والحرص عليها ، رجاء لثواب ذلك اليوم .

الثانية : الرهبة عند فعل المعصية ، والرضا بها ، خوفًا من عقاب ذلك اليوم .

الثالثة : تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها .

وقد أنكر الكافرون البعث بعد الموت زاعمين أن ذلك غير ممكن ، وهذا الزعم باطل دل على بطلانه الشرع ، والحس ، والعقل :

أما الشرع : فقد قال الله تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن : ٧] ، وقد اتفقت جميع الكتب السماوية عليه .

وأما الحس : فقد أرى اللَّهُ عباده إحياء الموتى في هذه الدنيا ، وفي سورة البقرة خمسة أمثلة على ذلك وهي :

المثال الأول : قوم موسى حين قالوا له : ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة : ٥٥] ، فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ

---

[١] تقدم تخريجه (ص٢٣) .

....

﴿تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

المثال الثاني: في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرن: ٧٢- ٧٣].

المثال الثالث: في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت وهم ألوف فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

المثال الرابع: في قصة الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مائة سنة ثم أحياه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

المثال الخامس: في قصة إبراهيم الخليل حين سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى؟ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذه أمثلة حسية واقعية تدل على إمكانية إحياء الموتى، وقد سبقت الإشارة إلى ما جعله الله تعالى من آيات عيسى ابن مريم من إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى.

....

وأما دلالة العقل فمن وجهين :

أحدهما : أن الله تعالى فاطر السماوات والأرض وما فيهما ، خالقهما ابتداء ، والقادر على ابتداء الخلق لا يعجز عن إعادته ، قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . وقال آمرًا بالرد على من أنكر إحياء العظام وهي رميم : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس : ٧٩] .

الثاني : أن الأرض تكون ميتة هامدة ليس فيها شجرة خضراء ، فينزل عليها المطر فتهتز خضراء حية فيها من كل زوج بهيج ، والقادر على إحيائها بعد موتها ، قادر على إحياء الأموات . قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق : ٩- ١١] .

وقد ضل قوم من أهل الزيغ فأنكروا عذاب القبر ونعيمه ، زاعمين أن ذلك غير ممكن لمخالفة الواقع ، قالوا : فإنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه ، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق .

وهذا الزعم باطل بالشرع ، والحس ، والعقل :

أما الشرع : فقد سبقت النصوص الدالة على ثبوت عذاب القبر ، ونعيمه في فقرة (ب) مما يلتحق بالإيمان باليوم الآخر .

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : « خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة ، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما »[١] ، وذكر الحديث ، وفيه : « أن أحدهما كان لا يستتر من البول - وفي رواية : من بوله - ، وأن الآخر كان يمشي بالنميمة » .

وأما الحس : فإن النائم يرى في منامه أنه كان في مكان فسيح بهيج يتنعم فيه ، أو أنه

[١] **متفق عليه :** البخاري (٢١٦) ، ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس .

....

كان في مكان ضيق موحش يتألم منه ، وربما يستيقظ أحيانًا مما رأى ، ومع ذلك فهو على فراشه في حجرته على ما هو عليه ، والنوم أخو الموت ولهذا سماه الله تعالى « وفاة » قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر : ٤٢] .

وأما العقل : فإن النائم في منامه يرى الرؤيا الحق المطابقة للواقع ، وربما رأى النبي ﷺ على صفته ، ومن رآه على صفته فقد رآه حقًّا[١] ومع ذلك فالنائم في حجرته على فراشه بعيدًا عما رأى ، فإن كان هذا ممكنًا في أحوال الدنيا ، أفلا يكون ممكنًا في أحوال الآخرة ؟!

وأما اعتمادهم فيما زعموه على أنه لو كشف عن الميت في قبره لوجد كما كان عليه ، والقبر لم يتغير بسعة ولا ضيق ، فجوابه من وجوه منها :

الأول : أنه لا تجوز معارضة ما جاء به الشرع بمثل هذه الشبهات الداحضة التي لو تأمل المعارض بها ما جاء به الشرع حق التأمل لعلم بطلان هذه الشبهات ، وقد قيل : [الوافر]

وكَمْ من عَائبٍ قولًا صحيحًا وآفتُه من الفهـمِ السقيـمِ

الثاني : أن أحوال البرزخ من أمور الغيب التي لا يدركها الحس ، ولو كانت تدرك بالحس لفاتت فائدة الإيمان بالغيب ، ولتساوى المؤمنون بالغيب ، والجاحدون في التصديق بها .

الثالث : أن العذاب والنعيم وسعة القبر وضيقه إنما يدركها الميت دون غيره ، وهذا كما يرى النائم في منامه أنه في مكان ضيق موحش ، أو في مكان واسع بهيج ، وهو بالنسبة لغيره لم يتغير منامه هو في حجرته وبين فراشه وغطائه ، ولقد كان النبي ﷺ يوحى إليه وهو بين أصحابه فيسمع الوحي ، ولا يسمعه الصحابة ، وربما يتمثل له الملك رجلًا فيكلمه والصحابة لا يرون الملك ، ولا يسمعونه .

الرابع : أن إدراك الخلق محدود بما مكنهم الله تعالى من إدراكه ولا يمكن أن يدركوا كل موجود ، فالسماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وكل شيء يسبح بحمد الله تسبيحًا حقيقيًا يُسْمِعُهُ الله تعالى من شاء من خلقه أحيانًا[٢] ، ومع ذلك هو محجوب

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة بلفظ : « ... ومن رآني في المنام فقد رآني ؛ فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ... » .

[٢] كما في تسبيح الطعام على عهد رسول الله ﷺ ، انظر « صحيح البخاري » (٣٥٧٩) .

وتُؤمِنَ بالقدَرِ خيرِهِ وشَرِّهِ(١) .

والدليلُ على هَذه الأركانِ السِّتَّةِ : قولُه تعالَى : ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

عنا ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وهكذا الشياطين ، والجن ، يسعون في الأرض ذهابًا وإيابًا ، وقد حضرت الجن إلى رسول الله ﷺ واستمعوا لقراءته وأنصتوا وولوا إلى قومهم منذرين ، ومع هذا فهم محجوبون عنا ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ٢٧] ، وإذا كان الخلق لا يدركون كل موجود ، فإنه لا يجوز أن ينكروا ما ثبت من أمور الغيب ، ولم يدركوه .

(١) القدر بفتح الدال : « تقدير الله تعالى للكائنات ، حسبما سبق علمه ، واقتضته حكمته » .

والإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن الله تعالى علم بكل شيء جملة وتفصيلًا ، أزلًا وأبدًا ، سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده .

الثاني : الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] .

وفي صحيح مسلم – عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة »[١].

الثالث : الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى ، سواء كانت مما يتعلق بفعله أم مما يتعلق بفعل المخلوقين ، قال الله تعالى فيما يتعلق بفعله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ

---

[١] أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

ودليلُ القدرِ : قولُه تعالَى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] .

مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص : ٦٨] ، وقال : ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم : ٢٧]، وقال : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران الآية : ٦] ، وقال تعالى فيما يتعلق بفعل المخلوقين : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ [النساء : ٩٠] ، وقال : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

الرابع : الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله تعالى بذواتها ، وصفاتها ، وحركاتها ، قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر : ٦٢] ، وقال : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان : ٢] . وقال عن نبي الله إبراهيم ﷺ أنه قال لقومه : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات : ٩٦] .

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها ؛ لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له .

أما الشرع : فقد قال الله تعالى في المشيئة : ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ : ٣٩] ، وقال : ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة : ٢٢٣] ، وقال في القدرة : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وأما الواقع : فإن كل إنسان يعلم أن له مشيئة وقدرة بهما يفعل وبهما يترك ، ويفرق بين ما يقع بإرادته كالمشي وما يقع بغير إرادته كالارتعاش ، لكن مشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته ، لقول الله تعالى : ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير : ٢٨- ٢٩] ، ولأن الكون كله ملك لله تعالى فلا يكون في ملكه شيء بدون علمه ومشيئته .

والإيمان بالقدر على ما وصفنا لا يمنح العبد حجة على ما ترك من الواجبات أو فعل من المعاصي ، وعلى هذا فاحتجاجه به باطل من وجوه :

الأول : قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، ولو كان لهم حجة بالقدر ما أذاقهم الله بأسه .

....

الثاني : قوله تعالى : ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٦٥] ، ولو كان القدر حجة للمخالفين لم تنتف بإرسال الرسل ؛ لأن المخالفة بعد إرسالهم واقعة بقدر الله تعالى .

الثالث : ما رواه البخاري ومسلم – واللفظ للبخاري – عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من النار أو من الجنة » . فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟ قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر » ، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾[١] الآية . وفي لفظ لمسلم : « فكل ميسر لما خلق له »[٢] ، فأمر النبي ﷺ بالعمل ، ونهى عن الاتكال على القدر .

الرابع : أن الله تعالى أمر العبد ونهاه ، ولم يكلفه إلا ما يستطيع ، قال الله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ولو كان العبد مجبرًا على الفعل لكان مكلفًا بما لا يستطيع الخلاص منه ، وهذا باطل ، ولذلك إذا وقعت منه المعصية بجهل ، أو نسيان ، أو إكراه فلا إثم عليه لأنه معذور .

الخامس : أن قدر الله تعالى سر مكتوم لا يُعْلَمُ به إلا بعد وقوع المقدور ، وإرادة العبد لما يفعله سابقة على فعله فتكون إرادته الفعل غير مبنية على علم منه بقدر الله ، وحينئذ تنتفي حجته بالقدر إذ لا حجة للمرء فيما لا يعلمه .

السادس : أننا نرى الإنسان يحرص على ما يلائمه من أمور دنياه حتى يدركه ، ولا يعدل عنه إلى ما لا يلائمه ، ثم [لا] يحتج على عدوله بالقدر ، فلماذا يعدل عما ينفعه في أمور دينه إلى ما يضره ثم يحتج بالقدر ؟ أفليس شأن الأمرين واحدًا ؟

وإليك مثالًا يوضح ذلك : لو كان بين يدي الإنسان طريقان أحدهما ينتهي به إلى بلد كلها فوضى وقتل ونهب وانتهاك للأعراض وخوف وجوع ، والثاني ينتهي به إلى بلد كلها نظام ، وأمن مستتب ، وعيش رغيد ، واحترام للنفوس والأعراض والأموال ، فأي الطريقين يسلك ؟ إنه سيسلك الطريق الثاني الذي ينتهي به إلى بلد النظام والأمن ،

---

[١] البخاري (٤٩٤٦، ٤٩٤٧) .

[٢] مسلم (٢٦٤٩) .

....

ولا يمكن لأي عاقل أبدًا أن يسلك طريق بلد الفوضى ، والخوف ، ويحتج بالقدر ، فلماذا يسلك في أمر الآخرة طريق النار دون الجنة ويحتج بالقدر ؟

مثال آخر : نرى المريض يؤمر بالدواء فيشربه ونفسه لا تشتهيه ، وينهى عن الطعام الذي يضره فيتركه ونفسه تشتهيه ، كل ذلك طلبًا للشفاء والسلامة ، ولا يمكن أن يمتنع عن شرب الدواء أو يأكل الطعام الذي يضره ويحتج بالقدر ، فلماذا يترك الإنسان ما أمر الله ورسوله ، أو يفعل ما نهى الله ورسوله ثم يحتج بالقدر ؟

السابع : أن المحتج بالقدر على ما تركه من الواجبات أو فعله من المعاصي ، لو اعتدى عليه شخص فأخذ ماله أو انتهك حرمته ثم احتج بالقدر ، وقال : لا تلمني فإن اعتدائي كان بقدر الله ، لم يقبل حجته . فكيف لا يقبل الاحتجاج بالقدر في اعتداء غيره عليه ، ويحتج به لنفسه في اعتدائه على حق الله تعالى ؟

ويذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع إليه سارق استحق القطع ، فأمر بقطع يده فقال : مهلًا يا أمير المؤمنين ، فإنما سرقت بقدر الله . فقال : ونحن إنما نقطع بقدر الله .

وللإيمان بالقدر ثمرات جليلة منها :

الأولى : الاعتماد على الله تعالى عند فعل الأسباب ، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه ؛ لأن كل شيء بقدر الله تعالى .

الثانية : أن لا يعجب المرء بنفسه عند حصول مراده ؛ لأن حصوله نعمة من الله تعالى ، بما قدره من أسباب الخير ، والنجاح ، وإعجابه بنفسه ينسيه شكر هذه النعمة .

الثالثة : الطمأنينة ، والراحة النفسية بما يجرى عليه من أقدار الله تعالى فلا يقلق بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ؛ لأن ذلك بقدر الله الذي له ملك السماوات والأرض ، وهو كائن لا محالة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد : ٢٢-٢٣] ، ويقول النبي ﷺ : « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء

....

صبر فكان خيرًا له »[١] رواه مسلم .

وقد ضل في القدر طائفتان :

إحداهما : الجبرية الذين قالوا : إن العبد مجبر على عمله وليس له فيه إرادة ولا قدرة .

الثانية : القدرية الذين قالوا : إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة ، وليس لمشيئة الله تعالى وقدرته فيه أثر .

والرد على الطائفة الأولى (الجبرية) بالشرع والواقع :

أما الشرع : فإن الله تعالى أثبت للعبد إرادة ومشيئة ، وأضاف العمل إليه ، قال الله تعالى : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ، وقال : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف : ٢٩] . وقال : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦] .

وأما الواقع : فإن كل إنسان يعلمُ الفرق بين أفعاله الاختيارية التي يفعلها بإرادته كالأكل ، والشرب ، والبيع والشراء ، وبين ما يقعُ عليه بغير إرادته كالارتعاش من الحمى ، والسقوط من السطح ، فهو في الأول فاعل مختار بإرادته من غير جبر ، وفي الثاني غير مختار ولا مريد لما وقع عليه .

والرد على الطائفة الثانية (القدرية) بالشرع والعقل :

أما الشرع : فإن الله تعالى خالق كل شيء ، وكل شيء كائن بمشيئته ، وقد بيَّن الله تعالى في كتابه أن أفعال العباد تقع بمشيئته فقال تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة : ١٣] .

وأما العقل : فإن الكون كله مملوك لله تعالى ، والإنسان من هذا الكون فهو مملوك لله تعالى ، ولا يمكن للمملوك أن يتصرف في ملك المالك إلا بإذنه ومشيئته .

---

[١] أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صهيب .

المَرتبةُ الثالثةُ : الإحسانُ ، ركنٌ واحدٌ وهو : « أن تعبُدَ اللَّهَ كأنكَ تَرَاهُ ، فإن لَم تكُن تراهُ فإنَّه يَرَاكَ » . والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] ، وقولُه : ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠] ، وقولُه : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾(١) [يونس : ٦١] .

---

(١) الإحسان ضد الإساءة ، وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذى ، فيبذل المعروف لعباد الله في ماله ، وجاهه ، وعلمه ، وبدنه .

فأما المال فأن ينفق ويتصدق ويزكي ، وأفضل أنواع الإحسان بالمال الزكاة ؛ لأن الزكاة أحد أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، ولا يتم إسلام المرء إلا بها ، وهي أحب النفقات إلى الله ﷻ ، ويلي ذلك ، ما يجب على الإنسان من نفقة لزوجته ، وأمه ، وأبيه ، وذريته ، وإخوانه ، وبني إخوته ، وأخواته ، وأعمامه ، وعماته ، وخالاته إلى آخر هذا ، ثم الصدقة على المساكين وغيرهم ، ممن هم أهل للصدقة كطلاب العلم مثلًا .

وأما بذل المعروف في الجاه فهو أن الناس مراتب ، منهم من له جاه عند ذوي السلطان فيبذل الإنسان جاهه ، يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذي السلطان يشفع له عنده ، إما بدفع ضرر عنه ، أو بجلب خير له .

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله ، تعليمًا في الحلقات والمجالس العامة والخاصة ، حتى لو كنت في مجلس قهوة ، فإن من الخير والإحسان أن تعلم الناس ، ولو كنت في مجلس عام فمن الخير أن تعلم الناس ، ولكن استعمل الحكمة في هذا الباب ، فلا تثقل على الناس حيث كلما جلست في مجلس جعلت تعظهم وتتحدث إليهم ، لأن النبي ﷺ كان يتخولهم بالموعظة[١] ، ولا يكثر ، لأن النفوس تسأم وتمل فإذا ملت كلت وضعفت ، وربما تكره الخير لكثرة من يقوم ويتكلم .

وأما الإحسان إلى الناس بالبدن فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « وتعين الرجل في

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٦٨) ، ومسلم (٢٨٢١) من حديث ابن مسعود .

....

دابته فتحمله عليها ، أو ترفع عليها متاعه صدقة »[١] . فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه ، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك فكل ذلك من الإحسان ، هذا بالنسبة للإحسان إلى عباد الله .

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله : فأن تعبد الله كأنك تراه كما قال النبي ﷺ ، وهذه العبادة ، أي عبادة الإنسان ربه كأنه يراه ، عبادة طلب وشوق ، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًّا عليها ؛ لأنه يطلب هذا الذي يحبه ، فهو يعبده كأنه يراه ، فيقصده وينيب إليه ويتقرب إليه سبحانه وتعالى ، « فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وهذه عبادة الهرب والخوف ، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان ، إذا لم تكن تعبد الله - ﷻ - كأنك تراه وتطلبه ، وتحث النفس للوصول إليه فاعبده كأنه هو الذي يراك ، فتعبده عبادة خائف منه ، هارب من عذابه وعقابه ، وهذه الدرجة عند أرباب السلوك أدنى من الدرجة الأولى .

وعبادة الله - سبحانه وتعالى - هي كما قال ابن القيم - رحمه الله - :

وعبادةُ الرحمنِ غايةَ حُبّهِ ... مـع ذُلّ عابدهِ همـا رُكنانِ[٢]

فالعبادة مبنية على هذين الأمرين : غاية الحب ، وغاية الذل ، ففي الحب الطلب ، وفي الذل الخوف والهرب ، فهذا هو الإحسان في عبادة الله ﷻ. وإذا كان الإنسان يعبد الله على هذا الوجه ، فإنه سوف يكون مخلصًا لله ﷻ لا يريد بعبادته رياء ولا سمعة ، ولا مدحًا عند الناس ، وسواء اطّلع الناس عليه أم لم يطلعوا ، الكل عنده سواء ، وهو محسن العبادة على كل حال ، بل إن من تمام الإخلاص أن يحرص الإنسان على ألا يراه الناس في عبادته ، وأن تكون عبادته مع ربه سرًّا ، إلا إذا كان في إعلان ذلك مصلحة للمسلمين أو للإسلام ، مثل أن يكون رجلًا متبوعًا يقتدى به ، وأحب أن يبين عبادته للناس ليأخذوا من ذلك نبراسًا يسيرون عليه ، أو كان هو يحب أن يظهر العبادة ليقتدي بها زملاؤه وقرناؤه وأصحابه ففي هذا خير ، وهذه المصلحة التي يلتفت إليها قد تكون أفضل وأعلى من مصلحة الإخفاء ، لهذا يثني الله ﷻ على

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٢٨٩١) ، ومسلم (١٠٠٩) واللفظ له ، من حديث أبي هريرة .

[٢] انظر « القصيدة النونية » (٢٥٣/١ - شرحه لأحمد عيسى) .

والدليلُ مِن السُّنَّةِ : حديثُ جبرائيلَ المشهورُ عن عمرَ رضِيَ اللَّهُ عنه قال : بينَما نحنُ جُلُوسٌ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يومٍ إذ طلَعَ علينا رجلٌ شديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شديدُ سَوَادِ الشَّعرِ ، لا يُرَى عليه أثرُ السَّفَرِ ولا يعرفُهُ منَّا أحدٌ ، حتَّى جلسَ إلى النبيِّ ﷺ فأسنَدَ رُكبتَيهِ إلى رُكبتَيْهِ ، ووضَعَ كَفَّيهِ على فَخذَيه ، وقال : يا محمدُ ، أخبِرني عن الإسلامِ ؟ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « الإسلامُ أن تشهدَ أن لا إلهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّه ، وتُقيمَ الصلاةَ ، وتُؤتي الزَّكاةَ ، وتصومَ رمضانَ ، وتَحُجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سَبيلًا » . قال : صَدَقْتَ ، فعَجِبنَا له يسألُهُ ويُصَدِّقُهُ . قال : فأخبرني عن الإيمانِ ؟ قال : « أن تُؤمِنَ باللَّهِ ، وملائكَتِهِ ، وكُتُبِه ، ورُسُلِهِ ، واليومِ الآخرِ ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ » . قال : صَدَقتَ ، قال : فأخبِرني عن الإحسانِ ؟ قال : « أن تعبدَ اللَّهَ كأنكَ تراهُ ، فإن لَم تكُن تَرَاهُ فإنَّه يَراكَ » . قال : فأخبِرني عن السَّاعَةِ ؟ قال : « مَا المَسئُولُ عنها بأعلَمَ مِن السَّائلِ » . قال : فأخبِرني عن أمَارَاتِهَا ؟ قال : « أن تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وأن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يتَطَاوَلُونَ في البُنيَانِ » . قال : فمَضَى ، فَلَبثنَا مَلِيًّا ، فقال : « يا عمرُ ، أتَدْرِي مَن السائلُ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ ورسولُه أعلمُ ، قال : « هذا جبريلُ أتاكُم يُعَلِّمُكُم أمرَ دينِكُم »[(1)] .

الذين ينفقون أموالهم سرًا وعلانية ، فإذا كان السر أصلح وأنفع للقلب وأخشع وأشد إنابة إلى الله أسروا ، وإذا كان في الإعلان مصلحة للإسلام بظهور شرائعه ، وللمسلمين يقتدون بهذا الفاعل وهذا العامل أعلنوه .

والمؤمن ينظر ما هو الأصلح ، كلما كان أصلح وأنفع في العبادة فهو أكمل وأفضل .

(١) رواه مسلم[١] ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان والإسلام ، وغالب هذا الحديث تقدم شرحه ، ولنا شرح عليه في مجموع الفتاوى والرسائل (١٤٣/٣) .

---

[١] مسلم (٨) وتقدم .

الأصلُ الثالثُ[١] :

معرفةُ نبيِّكُم محمدٍ ﷺ ، وهو : محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ المُطَّلبِ بنِ هاشمٍ ، وهاشمٌ مِن قريشٍ ، وقريشٌ مِن العربِ ، والعربُ مِن ذُرِّيَّةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيم الخليلِ ، عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاةِ والسَّلامِ . وله مِن العُمرِ : ثلاثٌ وستُّونَ سَنَةً ، مِنها أربعُونَ قبلَ النُّبُوَّةِ ، وثلاثٌ وعشرونَ نَبِيًّا ورسولًا ، نُبِّئَ بـ « اقْرَأْ » ، وأُرسلَ بـ « المُدَّثِّرِ » ، وبلدُهُ مكَّةُ ، وهاجَر إلى المَدينةِ .

---

(١) أي من الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها وهي معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه . وقد سبق الكلام على معرفة العبد ربه ودينه .

وأما معرفة النبي ﷺ فتتضمن خمسة أمور :

الأول : معرفته نسبًا ، فهو أشرف الناس نسبًا ، فهو هاشمي قرشي عربي فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم إلى آخر ما قاله الشيخ رحمه الله .

الثاني : معرفة سنه ، ومكان ولادته ، وَمُهَاجَرِهِ وقد بينها الشيخ بقوله : « وله من العمر ثلاث وستون سنة ، وبلده مكة ، وهاجر إلى المدينة » ، فقد ولد بمكة وبقي فيها ثلاثًا وخمسين سنة ، ثم هاجر إلى المدينة فبقي فيها عشر سنين ، ثم توفي فيها في ربيع الأول سنة إحدى عشر بعد الهجرة .

الثالث : معرفة حياته النبوية وهي ثلاث وعشرون سنة ، فقد أوحي إليه وله أربعون سنة ، كما قال أحد شعرائه :

وأتت عليه أربعونَ فأشرقتْ شمسُ النبوةِ منهُ في رمضان

الرابع : بماذا كان نبيًّا ورسولًا ؟ فقد كان نبيًّا حين نزل عليه قول الله تعالى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ - ٥] ، ثم كان رسولًا حين نزل عليه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر : ١ - ٧] ، فقام ﷺ فأنذر وقام بأمر الله عز وجل .

والفرق بين الرسول والنبي كما يقول أهل العلم : أن النبي هو من أوحي إليه بشرع

بعثَهُ اللَّهُ بالنِّذَارةِ عن الشِّركِ ، ويدعُو إلى التوحيدِ[١] . والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ[٢] ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ[٣] ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر : ١ - ٧] . ومعنَى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ : يُنْذِرُ عن الشِّرْكِ ويَدعُو إلى التوحيدِ . ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي : عَظِّمْه بالتَّوحيدِ ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي : طَهِّر أعمَالَكَ عن الشِّركِ . ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ : الأصنامُ ، وهَجْرُهَا تركُهَا ، والبَرَاءَةُ مِنها وأهلها .

أخَذَ على هَذَا عَشرَ سِنينَ ، يدعُو إلى التوحيدِ[٤] ، وبَعدَ العَشْرِ عُرِجَ به إلى السماءِ[٥] ، وفُرِضَت عليه الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، ...

ولم يؤمر بتبليغه ، والرسول من أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه والعمل به ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً .

الخامس : بماذا أرسل ولماذا؟ فقد أرسل بتوحيد الله تعالى وشريعته المتضمنة لفعل المأمور وترك المحظور ، وأرسل رحمة للعالمين لإخراجهم من ظلمة الشرك والكفر والجهل إلى نور العلم والإيمان والتوحيد ؛ حتى ينالوا بذلك مغفرة الله ورضوانه وينجوا من عقابه وسخطه .

(١) أي ينذرهم عن الشرك ويدعوهم إلى توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

(٢) النداء لرسول الله ﷺ .

(٣) يأمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقوم بجد ونشاط وينذر الناس عن الشرك ويحذرهم منه وقد فسر الشيخ هذه الآيات .

(٤) أي أن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلى توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة سبحانه وتعالى .

(٥) العروج : الصعود ، ومنـه قوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج : ٤] ، وهو من خصائص النبي ﷺ العظيمة التي فضله الله به قبل أن يهاجر من مكة ، فبينما هو نائم في الحجر في الكعبة أتاه آت فشق ما بين ثغرة نحره إلى أسفل بطنه ثم استخرج قلبه فملأه حكمة وإيمانًا تهيئة لما سيقوم به ، ثم أتى بدابة بيضاء دون البغل وفوق الحمار

....

يقال لها : البراق . يضع خطوه عند منتهى طرفه ، فركبه ﷺ وبصحبته جبريل الأمين حتى وصل بيت المقدس فنزل هناك وصلى بالأنبياء إمامًا بكل الأنبياء والمرسلين يصلون خلفه ، ليتبين بذلك فضل رسول الله ﷺ وشرفه وأنه الإمام المتبوع ، ثم عرج به جبريل إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحبًا به فنعم المجيء جاء . ففتح له فوجد فيها آدم . فقال جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه . فسلم عليه فرد عليه السلام ، وقال : مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ، وإذا على يمين آدم أرواح السعداء وعلى يساره أرواح الأشقياء من ذريته ، فإذا نظر إلى اليمين سر وضحك ، وإذا نظر قبيل شماله بكى ، ثم عرج به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح . إلخ . فوجد فيها يحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وهما ابنا الخالة ، كل واحد منهما ابن خالة الآخر ، فقال جبريل : هذان يحيى وعيسى فسلِّم عليهما . فسلَّم عليهما ، فردا السلام وقالا : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم عرج به جبريل إلى السماء الثالثة فاستفتح ... إلخ . فوجد فيها يوسف عليه الصلاة والسلام فقال جبريل : هذا يوسف فسلِّم عليه . فسلَّم عليه ، فرد السلام ، وقال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم عرج به جبريل إلى السماء الرابعة فاستفتح .. إلخ فوجد فيها إدريس ﷺ فقال جبريل : هذا إدريس فسلِّم عليه . فسلَّم عليه فرد السلام ، وقال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم عرج به جبريل إلى السماء الخامسة فاستفتح ... إلخ . فوجد فيها هارون ابن عمران أخا موسى ﷺ فقال جبريل : هذا هارون فسلِّم عليه . فسلَّم عليه فرد عليه السلام وقال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم عرج به جبريل إلى السماء السادسة فاستفتح . . .. إلخ . فوجد فيها موسى ﷺ فقال جبريل : هذا موسى فسلِّم عليه . فسلَّم عليه فرد عليه السلام وقال : مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح . فلما تجاوزه بكى موسى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي . فكان بكاء موسى حزنًا على ما فات أمته من الفضائل لا حسدًا لأمة محمد ﷺ ، ثم عرج به إلى السماء السابعة فاستفتح ... إلخ . فوجد فيها إبراهيم خليل الرحمن ﷺ فقال جبريل : هذا أبوك إبراهيم فسلِّم عليه .

وصَلَّى في مكَّةَ ثَلاثَ سِنينَ(١) ، وبعدَهَا أُمِرَ بالهجرَةِ إلى المَدينَةِ(٢) ،...

فسلَّم عليه فرد عليه السلام وقال : مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح . وإنما طاف جبريل برسول الله ﷺ ، على هؤلاء الأنبياء تكريمًا له وإظهارًا لشرفه وفضله ﷺ ، وكان إبراهيم الخليل مسندًا ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون ويصلون ثم يخرجون ولا يعودون ، في اليوم الثاني يأتي غيرهم من الملائكة الذين لا يحصيهم إلا الله ، ثم رفع النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى فغشيها من أمر الله من البهاء والحسن ما غشيها ، حتى لا يستطيع أحد أن يصفها من حسنها ، ثم فرض الله عليه الصلاة خمسين صلاة كل يوم وليلة ، فرضي بذلك وسلم ، ثم نزل فلما مر بموسى قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قال : خمسين صلاة في كل يوم . فقال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، وقد جربت الناس من قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال النبي ﷺ : فرجعت فوضع عني عشرًا . وما زال يراجع ربه حتى استقرت الفريضة على خمس ، فنادى مناد : أمضيت فريضتي وخففت على عبادي . وفي هذه الليلة أدخل النبي ﷺ الجنة فإذا فيها قباب اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ثم نزل رسول الله ﷺ حتى أتى مكة بغلس وصلى فيها الصبح[١].

(١) وكان يصلي الرباعية ركعتين حتى هاجر إلى المدينة فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر[٢].

(٢) أمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بالهجرة إلى المدينة ؛ لأن أهل مكة منعوه أن يقيم دعوته ، وفي شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر من البعثة وصل النبي ﷺ إلى المدينة مهاجرًا من مكة البلد الأول للوحي وأحب البلاد إلى الله ورسوله ، خرج من مكة مهاجرًا بإذن ربه بعد أن قام بمكة ثلاث عشرة سنة يبلغ رسالة ربه ويدعو إليه على بصيرة ، فلم يجد من أكثر قريش وأكابرهم سوى الرفض لدعوته والإعراض عنها ، والإيذاء الشديد للرسول ﷺ ، ومن آمن به حتى آل الأمر بهم إلى تنفيذ خطة المكر والخداع لقتل النبي ﷺ حيث اجتمع كبراؤهم في دار الندوة وتشاوروا ماذا يفعلون برسول الله ﷺ حين رأوا أصحابه يهاجرون إلى المدينة ، وأنه لا بد أن يلحق بهم ويجد النصرة والعون من الأنصار الذين بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ،

[١] انظر رسالة « الإسراء والمعراج » لأحمد شاكر تحقيق سيد عباس الجليمي ، طبعة مكتبة السنة ، وتفسير ابن كثير أول سورة الإسراء .

[٢] **متفق عليه** : البخاري (٣٩٣٥) ، ومسلم (٦٨٥) من حديث عائشة .

....

وحينئذ تكون له الدولة على قريش ، فقال عدو الله أبو جهل : الرأي أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا ثم نعطي كل واحد سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ونستريح منه فيتفرق دمه في القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف - يعني عشيرة النبي ﷺ - أن يحاربوا قومهم جميعًا فيرضون بالدية فنعطيهم إياها .
فأعلم الله نبيه ﷺ بما أراد المشركون وأذن له بالهجرة، وكان أبو بكر رضي الله عنه قد تجهز من قبل للهجرة إلى المدينة فقال له النبي ﷺ : على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي . فتأخر أبو بكر رضي الله عنه ليصحب النبي ﷺ ، قالت عائشة رضي الله عنها : فبينما نحن في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة في منتصف النهار إذا برسول الله ﷺ على الباب متقنعًا ، فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . فدخل النبي ﷺ وقال لأبي بكر : أخرج من عندك . فقال : إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي . فقال النبي ﷺ : قد أذن لي في الخروج . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال : نعم . فقال : يا رسول الله فخذ إحدى راحلتي هاتين . فقال النبي ﷺ : بالثمن . ثم خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر فأقاما في غار جبل ثور ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر وكان غلامًا شابًا ذكيًا واعيًا ، فينطلق في آخر الليل إلى مكة فيصبح من قريش ، فلا يسمع بخبر حول النبي ﷺ وصاحبه إلا وعاه حتى يأتي به إليهما حين يختلط الظلام ، فجعلت قريش تطلب النبي ﷺ من كل وجه وتسعى بكل وسيلة ليدركوا النبي ﷺ ، حتى جعلوا لمن يأتي بهما أو بأحدهما ديته مائة من الإبل ، ولكن الله كان معهما يحفظهما بعنايته ويرعاهما برعايته ، حتى إن قريشًا ليقفون على باب الغار فلا يرونهما ، قال أبو بكر رضي الله عنه : قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا . فقال : « لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[١]. حتى إذا سكن الطلب عنهما قليلًا خرجا من الغار بعد ثلاث ليال متجهين إلى المدينة على طريق الساحل .
ولما سمع أهل المدينة من المهاجرين والأنصار بخروج رسول الله ﷺ إليهم كانوا يخرجون كل صباح يوم إلى الحرة ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ وصاحبه حتى

---

[١] **متفق عليه** : البخاري (٣٦١٥، ٣٦٥٣)، ومسلم (٢٠٠٩، ٢٣٨١) من حديث أبي بكر .

والهجرَةُ : الانتقالُ مِن بَلَدِ الشِّركِ إلى بلدِ الإسلام(١)، والهجرةُ فَرِيضةٌ على هذه الأُمَّةِ مِن بلدِ الشِّرْكِ إلى بَلَدِ الإسلام(٢)، وهي باقيةٌ إلى أن تقُومَ السَّاعةُ .

والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا

يطردهم حر الشمس ، فلما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ وتعالى النهار واشتد الحر رجعوا إلى بيوتهم ، وإذا رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة ينظر لحاجة له فأبصر رسول الله ﷺ وأصحابه مقبلين يزول بهم السراب فلم يملك أن نادى بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جدكم . يعني هذا حظكم وعزكم الذي تنتظرون فهب المسلمون للقاء رسول الله ﷺ معهم السلاح تعظيمًا وإجلالًا لرسول الله ﷺ وإيذانًا باستعدادهم للجهاد والدفاع دونه رضي الله عنهم فتلقوه ﷺ بظاهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين ونزل في بني عمرو بن عوف في قباء ، وأقام فيهم بضع ليال وأسس المسجد ، ثم ارتحل إلى المدينة والناس معه وآخرون يتلقونه في الطرقات قال أبو بكر رضي الله عنه : خرج الناس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد .

(١) الهجرة في اللغة : « مأخوذه من الهجر وهو الترك » .
وأما في الشرع فهي كما قال الشيخ : « الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام » . وبلد الشرك هو الذي تقام فيها شعائر الكفر ولا تقام فيه شعائر الإسلام كالأذان والصلاة جماعة ، والأعياد ، والجمعة على وجه عام شامل ، وإنما قلنا : على وجه عام شامل . ليخرج ما تقام فيه هذه الشعائر على وجه محصور كبلاد الكفار التي فيها أقليات مسلمة فإنها لا تكون بلاد إسلام بما تقيمه الأقليات المسلمة فيها من شعائر الإسلام ، أما بلاد الإسلام فهي البلاد التي تقام فيها هذه الشعائر على وجه عام شامل .

(٢) فهي واجبة على كل مؤمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر فلا يتم إسلامه إذا كان لا يستطيع إظهاره إلا بالهجرة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [١] .

---

[١] انظر « الإحكام » (١٥٢/١) للآمدي ، و« القواعد والفوائد الأصولية » (ص٩٤) للبعلي ، و« المدخل » (ص١٥٠) لابن بدران ، و« المنخول » (ص١١٧) للغزالي ، و« روضة الناظر » (٣٣/١) لابن قدامة ، و« شرح المعتمد » (٧٤/١) .

﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾(١) [النساء: ٩٧- ٩٩].

وقولـه تعالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. قال البغويُّ رحِمه اللَّهُ تعالَى: سببُ نُزُولِ هذه الآيةِ في المسلمينَ الذينَ بمكَّةَ لم يُهاجِرُوا؛ نَادَاهُمُ اللَّهُ باسمِ الإيمانِ(٢).

والدليلُ على الهجرَةِ مِن السُّنَّةِ: قولُه ﷺ: «لا تنقَطِعُ الهجرةُ حتى تَنقطعَ التوبةُ، ولا تنقطعُ التوبةُ حتى تطلعَ الشمسُ مِن مغربِهَا(٣)»[١].

---

(١) في هذه الآية دليل على أن هؤلاء الذين لم يهاجروا مع قدرتهم على الهجرة أن الملائكة تتوفاهم وتوبخهم وتقول لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. أما العاجزون عن الهجرة من المستضعفين فقد عفا الله عنهم لعجزهم عن الهجرة، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

(٢) الظاهر أن الشيخ رحمه الله نقل هذا عن البغوي بمعناه، هذا إن كان نقله من التفسير إذ ليس المذكور في تفسير البغوي لهذه الآية بهذا اللفظ.

(٣) وذلك حين انتهاء العمل الصالح المقبول لله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والمراد ببعض الآيات هنا طلوع الشمس من مغربها.

(**تتمة**): نذكر هنا حكم السفر إلى بلاد الكفر.

فنقول: السفر إلى بلاد الكفار لا يجوز إلا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات.

---

[١] أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، وأحمد (٤/٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧١١)، والدارمي (٢٥٥٥)، وأبو يعلى (٧٤٧١)، والبخاري في «التاريخ» (٩/٨٠)، والطحاوي في «المشكل» (٢٦٣٤)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ رقم ٩٠٧)، و«مسند الشاميين» (١٠٦٤، ١٠٦٥)، والبيهقي (٩/١٧) من طريق حريز بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عوف، عن أبي هند البجلي، ومعاوية بن أبي سفيان به.
وأبو هند البجلي مجهول، وللحديث شاهد - انظر «الإرواء» (١٢٠٨) - صححه الشيخ الألباني رحمه الله به.

....

الشرط الثاني : أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات .

الشرط الثالث : أن يكون محتاجًا إلى ذلك .

فإن لم تتم هذه الشروط فإنه لا يجوز السفر إلى بلاد الكفار لما في ذلك من الفتنة أو خوف الفتنة ، وفيه إضاعة المال ؛ لأن الإنسان ينفق أموالًا كثيرة في هذه الأسفار .

أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك لعلاج أو تلقي علم لا يوجد في بلده ، وكان عنده علم ودين على ما وصفنا فهذا لا بأس به .

وأما السفر للسياحة في بلاد الكفار فهذا ليس بحاجة وبإمكانه أن يذهب إلى بلاد إسلامية يحافظ أهلها على شعائر الإسلام ، وبلادنا الآن والحمد لله أصبحت بلادًا سياحية في بعض المناطق فبإمكانه أن يذهب إليها ويقضي زمن إجازته فيها .

وأما الإقامة في بلاد الكفار فإن خطرها عظيم على دين المسلم ، وأخلاقه ، وسلوكه ، وآدابه ، وقد شاهدنا وغيرنا انحراف كثير ممن أقاموا هناك فرجعوا بغير ما ذهبوا به ، رجعوا فساقًا ، وبعضهم رجع مرتدًّا عن دينه وكافرًا به وبسائر الأديان – والعياذ بالله –، حتى صاروا إلى الجحود المطلق والاستهزاء بالدين وأهله السابقين منهم واللاحقين ، ولهذا كان ينبغي بل يتعين التحفظ من ذلك ووضع الشروط التي تمنع من الهوي في تلك المهالك .

فالإقامة في بلاد الكفر لا بد فيها من شرطين أساسيين :

الشرط الأول : أمن المقيم على دينه بحيث يكون عنده من العلم والإيمان ، وقوة العزيمة ما يطمئنه على الثبات على دينه والحذر من الانحراف والزيغ ، وأن يكون مضمرًا لعداوة الكافرين وبغضهم مبتعدًا عن موالاتهم ، ومحبتهم ، فإن موالاتهم ومحبتهم ، مما ينافي الإيمان بالله ، قال تعالى : ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة : ٢٢] الآية . وقال تعالى : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ

....

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة : ٥١- ٥٢] ، وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ : « أن من أحب قومًا فهو منهم ، وأن المرء مع من أحب »[١].

ومحبة أعداء الله من أعظم ما يكون خطرًا على المسلم ؛ لأن محبتهم تستلزم موافقتهم واتباعهم ، أو على الأقل عدم الإنكار عليهم ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « من أحب قومًا فهو منهم » .

الشرط الثاني : أن يتمكن من إظهار دينه بحيث يقوم بشعائر الإسلام بدون ممانع ، فلا يمنع من إقامة الصلاة والجمعة والجماعات إن كان معه من يصلي جماعة ومن يقيم الجمعة ، ولا يمنع من الزكاة والصيام والحج وغيرها من شعائر الدين ، فإن كان لا يتمكن من ذلك لم تجز الإقامة لوجوب الهجرة حينئذ ، قال في المغني (ص٤٥٧ جـ ٨) في الكلام على أقسام الناس في الهجرة : أحدها من تجب عليه وهو من يقدر عليها ولا يمكنه إظهار دينه ، ولا تمكنه من إقامة واجبات دينه مع المقام بين الكفار فهذا تجب عليه الهجرة لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] . وهذا وعيد شديد يدل على الوجوب ، ولأن القيام بواجب دينه واجب على من قدر عليه ، والهجرة من ضرورة الواجب وتتمته ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . اهـ .

وبعد تمام هذين الشرطين الأساسيين تنقسم الإقامة في دار الكفار إلى أقسام :

القسم الأول : أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه فهذا نوع من الجهاد فهي فرض كفاية على من قدر عليها ، بشرط أن تتحقق الدعوة وأن لا يوجد من يمنع منها أو من الاستجابة إليها ؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين وهي طريقة المرسلين ، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان فقال ﷺ :

---

[١] **متفق عليه بشطره الثاني :** البخاري (٦١٧١) ، ومسلم (٢٦٣٩) ، وأبو داود (٥١٢٧) ، والترمذي (٢٣٨٦) ، واللفظ لهما عن أنس . أما الشطر الأول فلم أجده .

....

« بلغوا عني ولو آية »[١].

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة، وبطلان التعبد، وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليحذر الناس من الاغترار بهم، ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. لكن لا بد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه والتحذير منه فلا فائدة من إقامته، وإن تحقق مراده مع مفسدة أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسول الإسلام وأئمة الإسلام وجب الكف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عينًا للمسلمين؛ ليعرف ما يدبروه للمسلمين من المكايد فَيَحْذَرُهُمُ المسلمون، كما أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق ليعرف خبرهم[٢].

القسم الثالث: أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دول الكفر كموظفي السفارات فحكمها حكم ما أقام من أجله. فالملحق الثقافي مثلًا يقيم ليرعى شؤون الطلبة ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه، فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندريء بها شر كبير.

القسم الرابع: أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد نص أهل العلم رحمهم الله على جواز دخول بلاد الكفر للتجارة وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

---

[١] أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو.

[٢] أخرجه مسلم (١٧٨٨) من حديث حذيفة. قال النووي: « وفي الحديث أنه ينبغي للإمام وأمير الجيش بعث الجواسيس والطلائع لكشف خبر العدو ».

....

القسم الخامس : أن يقيم للدراسة وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة لكنها أخطر منها وأشد فتكًا بدين المقيم وأخلاقه ، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه ، فيحصل من ذلك تعظيمهم والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم فيقلدهم إلا من شاء الله عصمته وهم قليل ، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه فيؤدي ذلك إلى التودد إليه ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال . والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم ويتولاهم ويكتسب منهم .

ومن أجل خطر هذا القسم وجب التحفظ فيه أكثر مما قبله فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسيين شروط :

الشرط الأول : أن يكون الطالب على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار وينظر به إلى المستقبل البعيد ، فأما بعث الأحداث « صغار السن » وذوي العقول الصغيرة فهو خطر عظيم على دينهم ، وخلقهم ، وسلوكهم ، ثم هو خطر على أمتهم التي سيرجعون إليها وينفثون فيها من السموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شهد ويشهد به الواقع ، فإن كثيرًا من أولئك المبعوثين رجعوا بغير ما ذهبوا به ، رجعوا منحرفين في دياناتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وحصل عليهم وعلى مجتمعهم من الضرر في هذه الأمور ما هو معلوم مشاهد ، وما مثل بعث هؤلاء إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضارية .

الشرط الثاني : أن يكون عند الطالب من علم الشريعة ما يتمكن به من التمييز بين الحق والباطل ، ومقارعة الباطل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل فيظنه حقًّا أو يلتبس عليه أو يعجز عن دفعه فيبقى حيران أو يتبع الباطل .

وفي الدعاء المأثور[1] : « اللهم أرني الحق حقًّا وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلًا وارزقني اجتنابه ، ولا تجعله ملتبسًا علي فأضل » .

الشرط الثالث : أن يكون عند الطالب دين يحميه ويتحصن به من الكفر والفسوق ، فضعيف الدين لا يسلم مع الإقامة هناك إلا أن يشاء الله ، وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم ، فأسباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة متنوعة ، فإذا صادفت محلًّا

---

[1] قال العراقي في « تخريج الإحياء » (٢/٣٦٩) : « لم أقف له على أصل » .

....

ضعيف المقاومة عملت عملها .

الشرط الرابع : أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من أجله بأن يكون في تعلمه مصلحة للمسلمين ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم ، فإن كان من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين ، أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره ، لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله ؛ لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق ، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة .

القسم السادس : أن يقيم للسكن ، وهذا أخطر مما قبله وأعظم لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر ، وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة ، وموالاة ، وتكثير لسواد الكفار ، ويتربى أهله بين أهل الكفر فيأخذون من أخلاقهم وعاداتهم ، وربما قلدوهم في العقيدة والتعبد ؛ ولذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله »[١] ، وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند لكن له وجهة من النظر ؛ فإن المساكنة تدعو إلى المشاكلة ، وعن قيس ابن حازم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا يا رسول الله ولم ؟ قال : لا تراءى نارهما » . رواه أبو داود والترمذي[٢] ، وأكثر الرواة رووه مرسلًا عن قيس بن حازم عن النبي ﷺ ، قال الترمذي : سمعت محمدًا - يعني البخاري - يقول : الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل . ا هـ . وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلن فيها شعائر الكفر ، ويكون

---

[١] **ضعيف** : أخرجه أبو داود (٢٧٨٧) ، والطبراني في « الكبير » (٧/ رقم ٧٠٢٣) من طريق جعفر بن سعد بن سمرة ، عن خبيب بن سليمان ، عن أبيه سليمان بن سمرة ، عن سمرة بن جندب .
وجعفر ليس بالقوي ، وخبيب مجهول ، وجعفر مقبول .
وللحديث طرق أخرى لا يتقوى بها ، وانظر « الصحيحة » (٦٣٦، ٢٣٣٠) .

[٢] **ضعيف** . أخرجه أبو داود (٢٦٤٥) ، والترمذي (١٦٠٤) ، والبيهقي (٨/ ١٣١) ، و(٩/ ١٤٢) من طريق أبي معاوية ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن حازم ، عن جرير بن عبد الله به .
قال أبو داود : « رواه هشيم ومعمر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريرًا » .
وصحح البخاري المرسل كما صرح بذلك الترمذي كما فعل الشارح رحمه الله . وله طرق أخرى انظر « الإرواء » (١٢٠٧) ، والحديث السابق .

فلمَّا استقرَّ بالمدينةِ أمرَ ببقِيَّةِ شرائعِ الإسلامِ مثل : الزكاةِ ، والصومِ ، والحجِّ ، والجهادِ ، والأذانِ ، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن الـمُنكرِ ، وغيرِ ذلك مِن شرائعِ الإسلامِ(١).

الحكم فيها لغير الله ورسوله وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه ويرضى به ، بل ينتسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم .

هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر نسأل الله أن يكون موافقًا للحق والصواب .

(١) يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى : لما استقر – أي النبي ﷺ – في المدينة النبوية أمر ببقية شرائع الإسلام ، وذلك أنه في مكة دعا إلى التوحيد نحو عشر سنين ، ثم بعد ذلك فرضت عليه الصلوات الخمس في مكة ، ثم هاجر إلى المدينة ولم تفرض عليه الزكاة ولا الصيام ولا الحج ولا غيرها من شعائر الإسلام ، وظاهر كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الزكاة فرضت أصلًا وتفصيلًا في المدينة ، وذهب بعض أهل العلم إلى أن الزكاة فرضت أولًا في مكة لكنها لم تقدر أنصبتها ولم يقدر الواجب فيها ، وفي المدينة قدرت الأنصاب وقدر الواجب . واستدل هؤلاء بأنه جاءت آيات توجب الزكاة في سورة مكية مثل قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام : ١٤١] ، ومثل قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج : ٢٤-٢٥] ، وعلى كل حال فاستقرار الزكاة وتقدير أنصابها وما يجب فيها وبيان مستحقيها كان في المدينة ، وكذلك الأذان والجمعة ، والظاهر أن الجماعة كذلك لم تفرض إلا في المدينة ؛ لأن الأذان الذي فيه الدعوة للجماعة فرض في السنة الثانية ، فأما الزكاة والصيام فقد فرضا في السنة الثانية من الهجرة ، وأما الحج فلم يفرض إلا في السنة التاسعة على القول الراجح من أقوال أهل العلم وذلك حين كانت مكة بلد إسلام بعد فتحها في السنة الثامنة من الهجرة ، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرهما من الشعائر الظاهرة كلها فرضت في المدينة بعد استقرار النبي ﷺ فيها وإقامة الدولة الإسلامية فيها .

أخَذَ على هذا عشرَ سِنينَ ، وبَعدَهَا تُوُفي صَلَواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه(١) ودِينُهُ باقٍ .

(١) أخذ أي النبي ﷺ عشر سنين بعد هجرته فلما أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين اختاره لجواره واللحاق بالرفيق الأعلى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فابتدأ به المرض صلوات الله وسلامه عليه في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول ، فخرج إلى الناس عاصبًا رأسه فصعد المنبر فتشهد وكان أول ما تكلم به بعد ذلك أن استغفر للشهداء الذين قتلوا في أحد ثم قال : « إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله » ففهمها أبو بكر رضي الله عنه فبكى وقال : بأبي وأمي نفديك بآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا ، فقال النبي ﷺ : « على رسلك يا أبا بكر » . ثم قال : « إن أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن خلة الإسلام ومودته »[١] ، وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس[٢] ، ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر أو الثالث عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة اختاره الله لجواره ، فلما نزل به جعل يدخل يده في ماء عنده ويمسح وجهه ويقوله : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ، ثم شخص بصره نحو السماء وقال : « اللهم في الرفيق الأعلى »[٣]. فتوفي ذلك اليوم فاضطرب الناس لذلك – وحق لهم أن يضطربوا – حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه فصعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ؛ فإن من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم قرأ : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠] ، فاشتد بكاء الناس وعرفوا أنه قد مات[٤] ، فغسل صلوات الله وسلامه عليه في ثيابه تكريمًا له ، ثم كفن بثلاث أثواب أي لفائف بيض سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة[٥] ، وصلى الناس عليه أرسالًا

[١] **متفق عليه** : البخاري (٣٦٥٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري .

[٢] **متفق عليه** : البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة .

[٣] أخرجه البخاري (٦٥١٠) من حديث عائشة .

[٤] **متفق عليه** : البخاري (٣٦٧٠) ، ومسلم (٢٢١٣) من حديث عائشة .

[٥] **متفق عليه** : البخاري (١٢٦٤) ، ومسلم (٩٤١) من حديث عائشة .

وهذا دينُهُ ، لا خيرَ إلَّا دلَّ الأُمَّةَ عليه ، ولا شرَّ إلَّا حَذَّرَهَا مِنه ، والخيرُ الذي دلَّ عليه : التوحيدُ ، وجميعُ ما يحبُّهُ اللَّهُ ويرضاهُ . والشَّرُّ الذي حَذَّر منهُ : الشِّرْكُ وجميعُ ما يكرَهُهُ اللَّهُ ويَأْبَاهُ .

بعَثَهُ اللَّهُ إلى النَّاسِ كافَّةً(١) ، وافترَضَ اللَّهُ طاعَتَهُ على جميعِ الثَّقَلَيْنِ : الجنِّ والإنسِ ، والدليلُ قولُه تعالى : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾(٢) [الأعراف : ١٥٨] .

وأكملَ اللَّهُ به الدِّينَ ، والدليلُ قولُهُ تعالَى : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(٣) [المائدة : ٣] .

والدليلُ على مَوْتِهِ ﷺ : قولُه تعالَى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ

بدون إمام[١] ، ثم دفن ليلة الأربعاء بعد أن تمت مبايعة الخليفة من بعده فعليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

(١) بعثه الله أي أرسله ، إلى الناس كافة أي جميعًا .

(٢) في هذه الآية دليل على أن محمدًا رسول الله ﷺ إلى الناس جميعًا ، وأن الذي أرسله له ملك السماوات والأرض ، ومن بيده الإحياء والإماتة ، وأنه سبحانه هو المتوحد بالألوهية كما هو متوحد في الربوبية ، ثم أمر سبحانه وتعالى في آخر الآية أن نؤمن بهذا الرسول النبي الأمي وأن نتبعه وأن ذلك سبب للهداية العلمية والعملية ، هداية الإرشاد ، وهداية التوفيق فهو عليه الصلاة والسلام رسول إلى جميع الثقلين وهم الإنس والجن وسموا بذلك لكثرة عددهم .

(٣) أي أن دينه عليه الصلاة والسلام باق إلى يوم القيامة فما توفي رسول الله ﷺ إلا وقد بيَّن للأمة جميع ما تحتاجه في جميع شئونها حتى قال أبو ذر ﷺ : « ما ترك النبي ﷺ طائرًا يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا »[٢] . وقال رجل من

---

[١] **صحيح** : أخرجه أحمد (٥/٨١) من طريق حماد بن سلمة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أبي عسيب أو أبي عسيم . وقال الهيثمي في « المجمع » (٨/٦١٥) : « رجاله رجال الصحيح » . وله شواهد .

[٢] **ضعيف** : أخرجه أحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٢) ، والطيالسي (٤٧٩) من طريق الأعمش عن المنذر ... الثوري عن أشياخ لهم عن أبي ذر به .

=

﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[(١)] [الزمر: ٣٠، ٣١].
والناسُ إذا مَاتُوا يُبْعَثُونَ[(٢)].

المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: علمكم نبيكم حتى الخراءة - آداب قضاء الحاجة - قال: «نعم لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي برجيع أو عظم»[١]. فالنبي ﷺ بيَّن كل الدين إما بقوله، وإما بفعله، وإما بإقراره ابتداء أو جوابًا عن سؤال، وأعظم ما بيَّن عليه الصلاة والسلام التوحيد.

وكل ما أمر به فهو خير للأمة في معادها ومعاشها، وكل ما نهى عنه فهو شر للأمة في معاشها ومعادها، وما يجهله بعض الناس ويدعيه من ضيق في الأمر والنهي فإنما ذلك لخلل البصيرة وقلة الصبر وضعف الدين، وإلا فإن القاعدة العامة أن الله لم يجعل علينا في الدين من حرج، وأن الدين كله يسر وسهولة، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] فالحمد لله على تمام نعمته وإكمال دينه.

(١) ففي هذه الآية أن النبي ﷺ ومن أرسل إليهم ميتون، وأنهم سيختصمون عند الله يوم القيامة فيحكم بينهم بالحق ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

(٢) بيَّن رحمه الله تعالى في هذه الجملة أن الناس إذا ماتوا يبعثون، يبعثهم الله عز وجل أحياء

= وهو ضعيف لجهالة مشايخ المنذر.

وقد خالف فطر بن خليفة الأعمش فأسقط الأشياخ: أخرجه أحمد (٥/١٦٢) من طريق حجاج بن محمد المصيصي الأعور، ووكيع في الزهد (٥٢٢)، وعنه ابن سعد في «الطبقات» (٢/٣٥٤) كلاهما - حجاج ووكيع، عن فطر عن منذر، عن أبي ذر به. ومنذر لم يدرك أبا ذر.

وقد اختلف على فطر فيه، فرواه حجاج ووكيع كما مر. وخالفهما سفيان بن عيينة فرواه عن فطر، عن أبي الطفيل، عن عامر بن واثلة، عن أبي ذر أخرجه البزار (٣٨٩٧)، وابن حبان (٦٥)، والطبراني في «الكبير» (.../ رقم ١٦٤٧)، وخالفهم يحيى بن سعيد القطان فرواه عن فطر، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي الدرداء أخرجه أبو يعلى (٥١٠٩).

ورجح الدارقطني في «العلل» (٦/٢٩٠) مرسل منذر الثوري عن أبي ذر به.

[١] أخرجه مسلم (٢٦٢) من حديث سلمان الفارسي.

والدليلُ: قولُه تعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ[١] وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[٢] وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ[٣]﴾ [طه: ٥٥]، وقولُه تعالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[٤] [نوح: ١٧، ١٨].

وبعدَ البعثِ محاسبونَ ومَجزيُّونَ بأعمالِهم، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[٥] [النجم: ٣١].

بعد موتهم للجزاء، وهذا هو النتيجة من إرسال الرسل أن يعمل الإنسان لهذا اليوم يوم البعث والنشور، اليوم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى من أحواله وأهواله ما يجعل القلب ينيب إلى الله ﷻ ويخشى هذا اليوم قال الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٧-١٨].
وفي هذه الجملة إشارة إلى الإيمان بالبعث واستدل الشيخ له بآيتين.

(١) أي من الأرض خلقناكم - حين خلق آدم عليه الصلاة والسلام - من تراب.

(٢) أي بالدفن بعد الموت.

(٣) أي بالبعث يوم القيامة.

(٤) هذه الآية موافقة تمامًا لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا، وقد أبدى الله ﷻ وأعاد في إثبات المعاد حتى يؤمن الناس بذلك ويزدادوا إيمانًا ويعملوا لهذا اليوم العظيم الذي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من العاملين له ومن السعداء فيه.

(٥) يعني أن الناس بعد البعث يجازون ويحاسبون على أعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال جلا وعلا: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فضلًا من الله ﷻ وامتنانًا منه سبحانه وتعالى، فهو جل وعلا قد تفضل بالعمل الصالح، ثم تفضل

ومَن كَذَّبَ بالبعثِ كَفرَ ، والدليلُ قولُه تعالَى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾(1) [التغابن : ٧] .

مرة أخرى بالجزاء عليه هذا الجزاء الواسع الكثير ، أما العمل السيئ فإن السيئة بمثلها لا يجازى الإنسان بأكثر منها قال تعالى : ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وهذا من كمال فضل الله وإحسانه .

ثم استدل الشيخ لذلك بقوله تعالى : ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ ، ولم يقل بالسوآى كما قال : ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ .

(١) من كذّب بالبعث فهو كافر لقوله تعالى : ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۝٢٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الأنعام : ٢٩- ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين : ١٠- ١٧] ، وقال تعالى : ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان : ١١] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٣] ، واستدل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقوله تعالى : ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الآية .

وأما إقناع هؤلاء المنكرين فبما يأتي :

أولاً : أن أمر البعث تواتر به النقل عن الأنبياء والمرسلين في الكتب الإلهية ، والشرائع السماوية ، وتلقته أممهم بالقبول ، فكيف تنكرونه وأنتم تصدقون بما ينقل إليكم عن فيلسوف أو صاحب مبدأ أو فكرة ، وإن لم يبلغ ما بلغه الخبر عن البعث لا في وسيلة النقل ولا في شهادة الواقع .

ثانيًا : أن أمر البعث قد شهد العقل بإمكانه ، وذلك من وجوه :

١- كل أحد لا ينكر أن يكون مخلوقًا بعد العدم ، وأنه حادث بعد أن لم يكن ، فالذي خلقه وأحدثه بعد أن لم يكن قادر على إعادته بالأولى ، كما قال الله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ

....

أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء الآية : ١٠٤] .

٢- كل أحد لا ينكر عظمة خلق السماوات والأرض لكبرهما وبديع صنعتهما ، فالذي خلقهما قادر على خلق الناس وإعادتهم بالأولى ؛ قال الله تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس : ٨١- ٨٢] .

٣- كل ذي بصر يشاهد الأرض مجدبة ميتة النبات ، فإذا نزل المطر عليها أخصبت وحيا نباتها بعد الموت ، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم ، قال الله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت : ٣٩] .

ثالثًا : أن أمر البعث قد شهد الحس والواقع بإمكانه فيما أخبرنا الله تعالى به من وقائع إحياء الموتى ، وقد ذكر الله تعالى من ذلك في سورة البقرة خمس حوادث منها ، قوله : ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْۦِى هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٥٩] .

رابعًا : أن الحكمة تقتضي البعث بعد الموت لتجازى كل نفس بما كسبت ، ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا لا قيمة له ، ولا حكمة منه ، ولم يكن بين الإنسان وبين البهائم فرق في هذه الحياة . قال الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون : ١١٥، ١١٦] ، وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ

وأرسلَ اللهُ جميعَ الرُّسُلِ مُبشِّرينَ ومُنذرِينَ، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١) [النساء: ١٦٥].

وأولُهُم نُوحٌ عليهِ السَّلامُ، وآخرُهُم محمدٌ ﷺ؛ والدليلُ على أنَّ أوَّلَهم نوحٌ عليه السلامُ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ

مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨- ٤٠]. وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فإذا بينت هذه البراهين لمنكري البعث وأصروا على إنكارهم، فهم مكابرون معاندون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٧].

(١) بيّن المؤلف رحمه الله تعالى أن الله أرسل جميع الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يبشرون من أطاعهم بالجنة وينذرون من خالفهم بالنار. وإرسال الرسل له حكم عظيمة من أهمها بل هو أهمها أن تقوم الحجة على الناس حتى لا يكون لهم على الله حجة بعد إرسال الرسل كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

ومنها أنه من تمام نعمة الله على عباده، فإن العقل البشري - مهما كان - لا يمكنه أن يدرك تفاصيل ما يجب لله تعالى من الحقوق الخاصة به، ولا يمكنه أن يطلع على ما لله تعالى من الصفات الكاملة، ولا يمكن أن يطلع على ما له من الأسماء الحسنى ولهذا أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

وأعظم ما دعا إليه الرسل - من أولهم نوح عليه الصلاة والسلام إلى آخرهم محمد ﷺ - التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾[١] [النساء: ١٦٣].

وكُلُّ أُمَّةٍ بعَثَ اللَّهُ إليها رسولًا[٢] مِن نوحٍ إلى محمدٍ؛ يأمُرُهُم بعبادةِ اللَّهِ وحدهُ، وينهاهُم عن عبادةِ الطَّاغُوتِ، والدليلُ قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[٣] [النحل: ٣٦].

وافْتَرَضَ اللَّهُ على جَميعِ العِبَادِ الكُفرَ بالطَّاغُوتِ والإيمانَ باللَّهِ: قال ابنُ القيمِ رحِمه اللَّهُ تعالَى: الطَّاغُوت: ما تَجَاوَزَ به العبدُ حَدَّهُ مِن معبودٍ أو مَتبُوعٍ، أو مُطَاعٍ[٤].

---

(١) بيَّن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أن أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وثبت في الصحيح من حديث الشفاعة: «إن الناس يأتون إلى نوح فيقولون له: أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»[١]، فلا رسول قبل نوح وبهذا نعلم خطأ المؤرخين الذين قالوا: إن إدريس عليه الصلاة والسلام قبل نوح بل الذي يظهر أن إدريس من أنبياء بني إسرائيل.

وآخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٠] فلا نبي بعده ومن ادعى النبوة بعده فهو كاذب كافر مرتد عن الإسلام.

(٢) أي أن الله بعث في كل أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.

(٣) هذا هو معنى لا إله إلا الله.

(٤) أراد شيخ الإسلام رحمه الله بهذا أن التوحيد لايتم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له واجتناب الطاغوت.

وقد فرض الله ذلك على عباده، والطاغوت مشتق من الطُّغيان، والطُّغيان مجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. يعني لما زاد

---

[١] سبق تخريجه.

....

الماء عن الحد المعتاد حملناكم في الجارية يعني السفينة .
واصطلاحًا : **أحسن ما قيل في تعريفه ما ذكره ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **أنه - أي الطاغوت -** : « كل ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع » . ومراده بالمعبود والمتبوع والمطاع غير الصالحين ، أما الصالحون فليسوا طواغيت وإن عُبِدوا أو اتُّبعوا أو أُطيعوا ، فالأصنام التي تعبد من دون الله طواغيت ، وعلماء السوء الذين يدعون إلى الضلال والكفر ، أو يدعون إلى البدع ، أو إلى تحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله طواغيت ، والذين يزينون لولاة الأمر الخروج عن شريعة الإسلام - بنظم يستوردونها مخالفة لنظام الدين الإسلامي - طواغيت ؛ لأن هؤلاء تجاوزوا حَدَّهُم ، فإن حَدَّ العالم أن يكون متبعًا لما جاء به النبي ﷺ ؛ لأن العلماء حقيقة ورثة الأنبياء ، يرثونهم في أمتهم علمًا وعملًا ، وأخلاقًا ، ودعوة وتعليمًا ، فإذا تجاوزوا هذا الحد وصاروا يزينون للحكام الخروج عن شريعة الإسلام بمثل هذه النظم فهم طواغيت ؛ لأنهم تجاوزوا ما كان يجب عليهم أن يكونوا عليه من متابعة الشريعة .
وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أو مطاع » فيريد به الأمراء الذين يُطَاعون شرعًا أو قدرًا ، **فالأمراء يُطَاعون شرعًا** إذا أَمَرُوا بما لا يخالف أمر الله ورسوله ، وفي هذه الحال لا يَصْدُق عليهم أنهم طواغيت ، والواجب لهم على الرعية السمع والطاعة ، وطاعتهم لولاة الأمر في هذا الحال بهذا القيد طاعة لله عَزَّ وَجَلَّ ، ولهذا ينبغي أن نلاحظ حين ننفذ ما أمر به ولي الأمر مما تجب طاعته فيه أننا في ذلك نتعبد لله تعالى ونتقرب إليه بطاعته ، حتى يكون تنفيذنا لهذا الأمر قربة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، وإنما ينبغي لنا أن نلاحظ ذلك ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .
وأما **طاعة الأمراء قَدَرًا** : فإن الأمراء إذا كانوا أقوياء في سلطتهم فإن الناس يطيعونهم بقوة السلطان - وإن لم يكن بوازع الإيمان - ؛ لأن طاعة ولي الأمر تكون بوازع الإيمان وهذه هي الطاعة النافعة ، النافعة لولاة الأمر ، والنافعة للناس أيضًا ، وقد تكون الطاعة بوازع السلطان بحيث يكون قويًا يخشى الناس منه ويهابونه ؛ لأنه ينكل بمن خالف أمره .
ولهذا نقول : إن الناس مع حكامهم في هذه المسألة لهم أحوال :
الحال الأولى : أن يقوى الوازع الإيماني والرادع السلطاني وهذه أكمل الأحوال وأعلاها .

والطَّوَاغيتُ(١) كثيرةٌ ورُءُوسُهم(٢) خمسةٌ : إبليسُ(٣) لَعَنَهُ اللَّهُ ، ومَن عُبدَ وهو راضٍ(٤)، ومَن دَعَا الناسَ إلى عبادَةِ نفسِهِ(٥)، ومَن ادَّعَى شيئًا مِن عِلمِ الغيبِ(٦).

الحال الثانية : أن يضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني وهذه أدنى الأحوال وأخطرها على المجتمع ، على حكامه ومحكوميه ؛ لأنه إذا ضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني حصلت الفوضى الفكرية والخلقية والعملية .

الحال الثالثة : أن يضعف الوازع الإيماني ويقوى الرادع السلطاني وهذه مرتبة وسطى ؛ لأنه إذا قوي الرادع السلطاني صار أصلح للأمة في المظهر فإذا اختفت قوة السلطان فلا تسأل عن حال الأمة وسوء عملها .

الحال الرابعة : أن يقوى الوازع الإيماني ويضعف الرادع السلطاني فيكون المظهر أدنى منه في الحال الثالثة لكنه فيما بين الإنسان وربه أكمل وأعلى .

(١) جمع طاغوت وسبق تفسيره .

(٢) أي زعماؤهم ومقلدوهم خمسة .

(٣) إبليس هو الشيطان الرجيم اللعين الذي قال الله له : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص : ٧٨] ، وكان إبليس مع الملائكة في صحبتهم يعمل بعملهم ، ولما أمر بالسجود لآدم ظهر ما فيه من الخبث والإباء والاستكبار فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، فَطُرِدَ من رحمة الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٣٤] .

(٤) أي عُبِدَ من دون اللّه وهو راض أن يُعْبَدَ من دون اللّه فإنه من رؤوس الطواغيت – والعياذ بالله – وسواء عُبِدَ في حياته أو بعد مماته إذا مات وهو راض بذلك .

(٥) أي من دعا الناس إلى عبادة نفسه – وإن لم يَعْبُدُوه – فإنه من رؤوس الطواغيت سواء أُجِيبَ لما دعا إليه أم لم يُجَب .

(٦) الغيب : ما غاب عن الإنسان ، وهو نوعان :
واقعٌ ، وَمَسْتَقْبَلٌ ، فغيب الواقع نسبي يكون لشخص معلومًا ولآخر مجهولًا ، وغيب المستقبل حقيقي لا يكون معلومًا لأحد إلا الله وحده ، أو من أطلعه عليه من الرسل ، فمن ادعى علمه فهو كافر ؛ لأنه مكذب لله ﷻ ولرسوله ، قال الله تعالى : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل : ٦٥] ، وإذا كان

ومَن حَكَمَ بغيرِ ما أنزَلَ اللَّهُ(١) .

الله ﷻ يأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يُعْلِنَ للملأ أنه لا يَعْلَمُ مَنْ في السماوات والأرض الغَيْبَ إلا اللهُ ، فإن من ادعى علم الغيب فقد كَذَّبَ الله ﷻ ورسوله في هذا الخبر .

ونقول لهؤلاء : كيف يمكن أن تعلموا الغيب ، والنبي ﷺ لا يعلم الغيب ؟هل أنتم أشرف أم الرسول ﷺ ؟ فإن قالوا : نحن أشرف من الرسول ؛ كفروا بهذا القول ، وإن قالوا : هو أشرف . فنقول : لماذا يُحجب عنه الغيب وأنتم تعلمونه ؟ وقد قال ﷻ عن نفسه : ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن :٢٦-٢٧] ، وهذه آية ثانية تدل على كفر من ادعى علم الغيب ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعلن للملأ بقوله : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

(١) الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية ؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته ، وكمال مُلْكِهِ وتَصَرُّفِهِ ، ولهذا سَمَّىٰ اللَّهُ تعالى المَتبُوعين - في غير ما أنزل الله تعالى - أربابًا لمُتَّبِعِيهم فقال سبحانه : ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١] ، فَسَمَّىٰ اللَّهُ تعالى المَتبُوعِين أربابًا حيث جُعِلوا مُشَرِّعِين مع الله تعالى ، وسَمَّىٰ المُتَّبِعِينَ عُبَّادًا حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى .

وقد قال عدي بن حاتم لرسول الله ﷺ إنهم لم يعبدوهم فقال النبي ﷺ: « بل إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم »[١].

إذا فهمت ذلك فاعلم أن من لم يحكم بما أنزل الله ، وأراد أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله وردت فيه آيات بنفي الإيمان عنه ، وآيات بكفره وظلمه ، وفسقه .

---

[١] **ضعيف** : أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) ، وفي إسناده غطيف بن أعين ضعيف . وانظر « إغاثة اللهفان » (ص٨١٦) بتحقيقي ، وقد رد الشيخ الألباني رحمه الله في « الصحيحة » (٣٢٩٣) على من نقل تضعيف الدارقطني لغطيف ، لكن انظر « الضعفاء والمتروكين » (٤٣٠) ، قال الدارقطني : « غطيف بن أعين كوفي عن مصعب بن سعد » ، فهذا يبطل ما ذهب إليه الشيخ الألباني ، والله أعلم .

....

فأما القسم الأول :

فمثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٠- ٦٥] .

فوصفَ اللَّهُ تعالى هؤلاء المُدَّعِينَ للإيمان – وهم منافقون – بصفات :

الأولى : أنهم يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت ، وهو كل ما خالف حكم الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ لأن ما خالف حكم الله ورسوله ، فهو طغيان و اعتداء على حُكْم من له الحُكْم وإليه يرجع الأمر كله وهو الله ، قال الله تعالى : ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٢٥] .

الثانية : أنهم إذا دُعُوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدوا وأعرضوا .

الثالثة : أنهم إذا أُصيبوا بمصيبة بما قدمت أيديهم–ومنها أن يعثر على صنيعهم–جاءوا يحلفون أنهم ما أرادوا إلا الإحسان والتوفيق ، كحال من يرفض اليوم أحكام الإسلام ويحكم بالقوانين المخالفة لها ؛ زعمًا منه أن ذلك هو الإحسان الموافق لأحوال العصر .

ثم حذَّرَ – سبحانه – هؤلاء المُدَّعِين للإيمان المُتَّصِفِين بتلك الصفات بأنه – سبحانه – يعلم ما في قلوبهم وما يُكِنُّونَهُ مِنْ أمور تخالف ما يقولون ، وأَمَرَ نَبِيَّهُ أن يَعِظَهُم ويقول لهم في أنفسهم قولًا بليغًا ، ثم بَيَّنَ أن الحكمة من إرسال الرسول أن يكون هو المُطَاع المَتْبُوع لا غيره من الناس مهما قويت أفكارهم واتسعت مداركهم ، ثم أقسم تعالى

....

ربوبيته لرسوله – التي هي أخص أنواع الربوبية والتي تتضمن الإشارة إلى صحة رسالته ﷺ – أقسم بها قسمًا مؤكدًا أنه لا يصح الإيمان إلا بثلاثة أمور :

الأول : أن يكون التحاكم في كل نزاع إلى رسول الله ﷺ .

الثاني : أن تنشرح الصدور بحكمه ، ولا يكون في النفوس حرج وضيق منه .

الثالث : أن يحصل التسليم بقبول ما حكم به وتنفيذه بدون توان أو انحراف .

وأما القسم الثاني :

فمثل قوله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] ، وقوله : ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة : ٤٧] ، وهل هذه الأوصاف الثلاثة تتنزل على موصوف واحد ؟ بمعنى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق ، لأن الله تعالى وصف الكافرين بالظلم والفسق فقال تعالى : ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة : ٨٤] . فكل كافر ظالم فاسق ، أو هذه الأوصاف تتنزل على موصوفين بحسب الحامل لهم على عدم الحكم بما أنزل الله ؟ هذا هو الأقرب عندي والله أعلم .

فنقول : من لم يحكم بما أنزل الله استخفافًا به ، أو احتقارًا ، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه ، وأنفع للخلق أو مثله فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، ومن هؤلاء من يضعون للناس تشريعات تخالف التشريعات الإسلامية لتكون منهاجًا يسير الناس عليه ، فإنهم لم يَضَعُوا تلك التشريعات – المخالفة للشريعة الإسلامية – إلا وهم يعتقدون أنها أصلح وأنفع للخلق ، إذ من المعلوم بالضرورة العقلية ، والجبلة الفطرية أن الإنسان لا يعدل عن منهاج إلى منهاج يخالفه إلا وهو يعتقد فضل ما عدل إليه ونقص ما عدل عنه .

ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يَسْتَخِفَّ به ، ولم يحتقره ، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك ، فهذا ظالم وليس بكافر ، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم .

ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافًا بحكم ، الله ، ولا احتقارًا ، ولا اعتقادًا أن غيره

والدَّليلُ(١) قولُه تعالَى : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ(٢) قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن

أصلح ، وأنفع للخلق أو مثله ، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له ، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق ، وليس بكافر ، وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به ووسائل الحكم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله أنهم على وجهين :

أحدهما : أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل ويعتقدون تحليل ما حرم ، وتحريم ما أحل الله – اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل – فهذا كفر ، وقد جعله الله ورسوله شركًا .

الثاني : أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحليل الحرام وتحريم الحلال – كذا العبارة المنقولة عنه –ثابتًا لكنهم أطاعوهم في معصية الله ، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب[١] .

وهناك فرق بين المسائل التي تعتبر تشريعًا عامًّا والمسألة المعينة التي يحكم فيها القاضي بغير ما أنزل الله ؛ لأن المسائل يتأتى فيها التقسيم السابق ، وإنما هي من القسم الأول فقط ؛ لأن هذا المُشَرِّع تشريعًا يخالف الإسلام إنما شَرَّعَهُ لاعتقاده أنه أصلح من الإسلام وأنفع للعباد كما سبقت الإشارة إليه .

وهذه المسألة – أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله – من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق ؛ لأن المسألة خطيرة – نسأل الله تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم –. كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتتبين المحجة ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة ، ولا يحقرن نفسه عن بيانه ولا يهابن أحدًا فيه ؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

(١) أي على وجوب الحكم بما أنزل الله والكفر بالطاغوت .

(٢) لا إكراه على الدين لظهور أدلته وبيانها ووضوحها ؛ ولهذا قال بعده : ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فإذا تبين الرشد من الغي فإن كل نفس سليمة لا بد أن تختار الرُّشد على الغي .

[١] انظر « مجموع الفتاوى » (٧/٧٠) .

يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ[(1)] فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى[(2)]﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا معنى لا إلهَ إلَّا اللَّهُ.

وفي الحديثِ: «رأسُ الأمرِ الإسلامُ[(3)]، وعمودُهُ الصَّلاةُ[(4)]، وذُروَةُ سَنامِهِ الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ[(5)]»[١].

واللَّهُ أعلمُ، وصَلَّى اللَّهُ على محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسَلَّمَ[(6)].

---

(١) بدأ الله ﷻ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت ولهذا يقال: التخلية قبل التحلية.

(٢) أي تمسك بها تمسكًا تامًا، والعروة الوثقى هي الإسلام، وتأمل كيف قال ﷻ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾، ولم يقل: (تمسك)؛ لأن الاستمساك أقوى من التمسك فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك.

(٣) أراد المؤلف رحمه الله تعالى الاستدلال بهذا الحديث على أن لكل شيء رأسًا، فرأس الأمر الذي جاء به محمد ﷺ الإسلام.

(٤) لأنه لا يقوم إلا بها، ولهذا كان الراجح كفر تارك الصلاة وأنه ليس له الإسلام.

(٥) أعلاه وأكمله الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الإنسان إذا أصلح نفسه حاول إصلاح غيره بالجهاد في سبيل الله؛ ليقوم الإسلام، ولتكون كلمة الله هي العليا، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، وصار ذروة السنام؛ لأن به علو الإسلام على غيره[١].

(٦) ختم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى رسالته هذه برد العلم إلى الله ﷻ، والصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ.

* وبهذا انتهت الأصول الثلاثة وما يتعلق بها، فنسأل اللّٰه تعالى أن يثيب مؤلفها أحسن ثواب، وأن يجعل لنا نصيبًا من أجرها وثوابها، وأن يجمعنا وإياه في دار كرامته، إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

---

[١] أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣) وأحمد (٥/٣٣١) من طريق أبي وائل عن معاذ، وهذا إسناد منقطع بين أبي وائل ومعاذ، وانظر «الإرواء» (٤١٣)، و«الصحيحة» (١١٢٢)، و«العلل» للدارقطني (٦/٧٣)، و«جامع العلوم والحكم» الحديث رقم (٢٩).

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

* * *